



٣

أَوْحِيَانُ التَّوْحِيدِ

بَيْنَ الزُّنْدَقَةِ وَالْإِبْدَاعِ

تأليف
د. محمد حمزة

أُوحِيَانُ التَّوْحِيدِ

بين الزندقة .. والابداع

تأليف

د. محمد هاشم



منظمة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



اسم السلسلة : فى التنوير الاسلامى
اسم الكتاب : أبو حيان التوحيدى

تأليف : دكتور / محمد عمارة

تاريخ النشر : مارس ١٩٩٧

رقم الإيداع : ٩٦ / ١٤٢٠٥

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-14-0547-0

الناشر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

المركز الرئيسى : ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة ٦ أكتوبر

ت : ٢٢٠٢٨٧ - ٢٢٠٢٨٩ / ١١

فاكس : ١١ / ٢٢٠٢٩٦

مركز التوزيع : ١٨ شارع كامل صدقى - القجالة - القاهرة

ت : ٥٩٠٩٨٣٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ - فاكس ٢ / ٥٩٠٣٣٩٥

إدارة النشر : ٢١ ش أحمد عرابى (برج النهضة) للمهندسين - القاهرة

ت : ٢٤٦٦٤٣٤ - ٢٤٧٢٨٦٤ فاكس : ٢ / ٢٤٦٢٥٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كان عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤هـ، ٦٩٩ - ٧٦١م) ثاني اثنين - مع واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١هـ، ٧٠٠ - ٧٤٨م) - بلورا وقادا تيار الاعتزال، وصاغا مقولات الفلسفة العقلانية الإسلامية.. وكان قائدا في الثورة التي قوضت بناء الدولة الأموية.. وفي المعارضة للدولة العباسية، تهتز له قوائم العروش، ويحسب له الخلفاء كل حساب.. وفي ذات الوقت، كان عمرو بن عبيد العابد، الذي حج من البصرة إلى بيت الله الحرام، بمكة المكرمة، أربعين حجة في أربعين عاما، سيرا على قدميه، ومن خلفه راحلته، التي يقودها، حاملا عليها الضعفاء والفقراء!..

وكان الزاهد، الذي تخشع قلوبنا أمام دعائه لربه الذي كان يقول فيه: «اللهم اغنني بالافتقار إليك!.. ولا تفقرني بالاستغناء عنك!.. وأعني على الدنيا بالقناعة، وعلى الدين بالعصمة»!..

ومع هذا الذي كان عليه عمرو بن عبيد - الذي رثاه وصلى عليه الخليفة أبو جعفر المنصور (٩٥ - ١٥٨هـ، ٧١٤ - ٧٧٥م) - وهي سابقة لم تتكرر مع غيره - لأن الكل كان «يطلب صيدا».. إلا عمرو بن عبيد - كما قال المنصور! - مع كل هذا، وجدنا الخصومة الفكرية تذهب بأهل الحديث والسلفية النصوصية إلى حيث تصنفه في «أهل الأهواء»، حتى ليقول فيه الإمام الخنيلي «سيد الحُفَاط» يحيى بن معين (١٥٨ - ٢٣٣هـ، ٧٧٥ - ٨٤٨م): «إنه كان من الدهرية الذين يقولون: إنما الناس مثل الزرع»!..

وهذا درس بليغ يدعونا إلى التماس أفكار المفكرين في مقولاتهم

ومقالاتهم التي كتبوها هم، وليس فيما كتبه عنهم الآخرون، مهما كان احترامنا للهؤلاء الآخرين..

لكن هذا الدرس - الذي تصل بدايته وقوته إلى حيث يغنيان عن طول الكلام فيه - كثيرا ما يتخلف الوعي به والالتزام لتبسيطاته في الكتابة عن مقولات ومقالات كثير من الأعلام والمفكرين، فيتوارث الخلف عن السلف الكثير من الأباطيل والأوهام، التي ألصقها الخصوم بخصومهم الفكريين..

والنموذج الذي تطمح هذه الصفحات إلى سبر أغوار الحقائق والأوهام التي شاعت عنه، والتصقت به - قديما وحديثا - رغم كثرة ما كتب عنه - هو أبو حيان التوحيدي، على بن محمد بن العباس (٣١٠ - ٤١٤ هـ، ٩٢٢ - ١٠٢٣ م) .. والذي نريد عرض آراء الآخرين فيه على ما في مصنفاته من آراء .. بل وتحقيق ماله وما ليس له في هذه المصنفات ! ..

* * *

فكما اختلف القدماء في تاريخ ميلاد التوحيدي ما بين عام (٣١٠ هـ ٩٢٢ م) وعام (٣٢٠ هـ ٩٣٢ م) اختلفوا في الموطن الذي نشأ فيه، فقيل: شيرازي .. وقيل: واسطي .. وقيل: نيسابوري .. وقيل: بغدادى .. بل لقد اختلفوا حتى في تاريخ وفاته ما بين عام (٤٠٠ هـ ١٠٠٩ م) وعام (٤١٤ هـ ١٠٢٣ م) ..

وإذا كانت آثار الخلاف والاختلاف في الموطن وفي تواريخ الميلاد والوفاة طبيعية - وفق ملايسات ذلك العصر - وهي مما لا يقلب الموازين في تحديد مكانة المفكر ضمن تيارات الفكر ومذاهب التراث .. فإن الخطر الأكبر إنما يأتى إذا كان الخلاف والاختلاف في عقائد المفكر الذي ندرسه .. ويصبح هذا الخطر خلا وكارثة إذا نحن

ظللنا نلتصص عقائد ومذاهب مفكرينا فيما كتبته عنهم القدماء، من مصنفى المقالات والطبقات، وليس فى الفكر الذى أودعته هؤلاء المفكرون المصنفات التى صنفوها..

وسيظل غريبا ومعيبا ألا تعى دراساتنا الحديثة والمعاصرة «الأبعاد الذهبية» فى التقويمات الفكرية التى جاءت عن أعلامنا فى كتب المقالات وموسوعات الطبقات..

ولعل نموذج أبى حيان التوحيدى أن يكون درسا بالغ الدلالة فى هذا المقام..

لقد بدأ حديث القدماء عن عقيدة التوحيدى وفكره ومذهبه، باتهام ابن فارس أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزوينى (٣٢٩ - ٣٩٥ هـ، ٩٤١ - ١٠٠٤ م) للتوحيدى بالكذب وقلة الدين والورع، والقذح فى الشريعة والقول بالتعطيل - (أى نفى الصفات عن الله - سبحانه وتعالى) -^(١)

وعلى درب هذه الإدانة سار ابن الجوزى، أبو الفرج جمال الدين (٥١٠ - ٥٩٧ هـ، ١١١٦ - ١٢٠١ م)، الذى قال: «زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندى، والتوحيدى، وأبو العلاء المعرى. وشهرهم على الإسلام التوحيدى، لأنهما صرحا، وهو مجمع - (لم يُبين) - ولم يصرح»^(٢) !..

(١) السبكى (طبقات الشافعية الكبرى) ج ٥ ص ٢٨٧ - تحقيق: د. محمود الطناحى، وعبد الفتاح الحلوى، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م
(٢) انظر مقدمة تحقيق (المقالات) ص ٨ - تحقيقها: محمد توفيق حسين - طبعة بيروت سنة ١٩٨٩ م - وهو ينقل عن السيوطى (بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة) ص ٣٤٩. طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ.

ومع ابن فارس وابن الجوزي سار الحافظ الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ ، ١٢٧٤ - ١٣٤٨ م) الذي رمى التوحيدي بسوء الاعتقاد والضلال والإلحاد^(١) .

وعلى ذات الدرب سار الخوانساري ، محمد باقر الموسوي (١٢٢٦ - ١٣١٣ هـ ، ١٨١١ - ١٨٩٥ م) ، الذي قال : « كان التوحيدي كذابا ، قليل الورع . »^(٢)

وفي مقابل هذه النماذج لاتهام التوحيدي في عقيدته ، والتجريح لمذهبه ، نجد موقف ابن النجار ، محب الدين ، أبو عبد الله ، والذي عاصر ابن الجوزي ، وسمع منه ، لكنه خالفه في رأيه ، فقال عن التوحيدي : « كان أبو حيان فاضلا لغويا نحويا شاعرا ، له مصنفات حسنة ، وكان فقيرا صابرا ، متدينا ، حسن العقيدة »^(٣)

وعلى درب الثناء على التوحيدي ، ورفض اتهامه في اعتقاده سار ياقوت الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ ، ١١٧٨ - ١٢٢٩ م) ، الذي ارتفع بالتوحيدي إلى الذروة ، فقال : إنه « شيخ الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ،

(١) الذهبي (ميزان الاعتدال) ج ٤ ص ٥١٨ . تحقيق : علي البيجارى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م . انظر : د . أمين فؤاد سيد . مجلة (فصول) - المجلد الرابع عشر ، العدد الثالث - تحريف سنة ١٩٩٥ م .

(٢) د . إبراهيم الكيلاني (أبو حيان التوحيدي) ص ٢٦ . طبعة دار المعارف - القاهرة - سلسلة «نوايع الفكر العربي» - والنقل عن (روضات الجنات) ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٣) مقدمة تحقيق (المقاييسات) ص ٨ - والنقل عن ابن حجر العسقلاني (لسان الميزان) ج ٦ ص ٣٧٠ طبعة الهند سنة ١٣٢٩ هـ .

وإمام البلغاء . . فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن ، واسع الدراية والرواية^(١) ومع المدافعين عن التوحيدى ، وقف السبكى ، تاج الدين ، عبد الوهاب بن على (٧٢٧ - ٧٧١ هـ ، ١٣٢٧ - ١٣٧٠ م) ، الذى تحدث عن التوحيدى - وقد ترجم له فى طبقات الشافعية - فقال قول الباحث فى القضية الخلافية : «ولم يثبت عندى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقعة فيه . ووقعتُ على كثير من كلامه ، فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوى النفس ، مزدريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن يُنال منه هذا النيل»^(٢)

أما الحافظ ابن حجر العسقلانى ، شهاب الدين أبو الفضل (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ ، ١٣٧٢ - ١٤٤٩ م) فلقد اكتفى بأن نقل آراء الذين اتهموا التوحيدى والذين برءوه . . نقل قول الذين قالوا : «إنه كان كذابا ، قليل الدين والورع ، مجاهرا بالبهت ، تعرض لأموار جسام من القدح فى الشريعة والقول بالتعطيل» . . وقول الذين قالوا : «إنه كان فاضلا فقيرا ، صابرا ، متدينا ، حسن العقيدة»^(٣) . . تلك هى «خارطة» آراء الأقدمين فى أبى حيان التوحيدى ، انتقلت متناقضاتها الحادة - ما بين الزندقة والتصوف - مرورا بالفلسفة والكلام والاعتزال - إلى مؤلفات المعاصرين عن

(١) المرجع السابق ، ص ٨ - والنقل عن (معجم الأدباء) ج ١٥ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

(٢) د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص ٥٣ - والنقل عن (طبقات الشافعية) ج ٥ ص ٢٨٧ .

(٣) مقدمة تحقيق (القياسات) ص ٨ - والنقل عن (لسان الميزان) ج ٦ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

التوحيدى .. مع غيبة المنهج الذى يفسر هذه المتناقضات فى ضوء «العامل المذهبى» لأصحابها .. والذى ينتقل بمنطلقات التقويم للرجل من آراء كتاب المقالات والتراجم فيه ، إلى مقالاته هو فيما صنف من مؤلفات ! ..

ذلك أن الوعى بدور «العامل المذهبى» لأصحاب هذه الآراء ، ودور التكوين الفكرى والتجربة الحياتية لكل منهم ، كفيل بحل ألغاز هذه المتناقضات ..

فابن فارس ، الذى بدأ سلسلة اتهام التوحيدى فى عقيدته .. كان معاصرا لأبى حيان ، يساكنه فى مدينة «الرى» ، حيث كان الوزير صاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ ، ٩٣٨ - ٩٩٥ م) .. وكان ابن فارس أستاذا للصاحب بن عباد .. بينما كانت للتوحيدى تجربة مرة مع صاحب ، الذى أراد حبس التوحيدى على مكانة «الناسخ - الوراق» ، وحال بينه وبين تجاوز هذه المهنة - التى كان يسميها التوحيدى «مهنة الشؤم» ! - وانتهت تلك التجربة المرة بفرار التوحيدى من وعيد ابن عباد ، الذى هجاء التوحيدى هجاء لا أخلاقيا - مع ابن العميد - فى كتابه (مثالب الوزيرين) ! ..

هذا هو موقع ابن فارس من أبى حيان ..

أما ابن الجوزى ، فكان حنبلياً .. من أهل الأثر .. الذين يضيقون بأهل الرأى .. فما بالناس إذا كان هذا «الرأى» الذى امتلأت به مصنفات التوحيدى جامعا لآراء الفلاسفة والمناطق - على مذهب أرسطو - وإخوان الصفا ، الذين مزجوا الأفلاطونية بالإشراقية الباطنية الغنوصية بالإسلام ؟ ! ..

ومثل ابن الجوزى - فى التزام مذهب المحدثين ، أهل الأثر - كان الحافظ الذهبى - رغم أنه كان شافعيًا فى الفقه - علم الفروع - ..

أما الخوانساري ، فلقد جعله تشييعه خصما للتوحيدي ، الذي اخترع «رسالة السقيفة» ، مفضلا فيها أبا بكر الصديق على ابن أبي طالب - رضي الله عنهما - وهو ما يناصبه الشيعة كل وأشد العداء - .. !

أما الذين دفعوا عن التوحيدي اتهامات الحنابلة وأهل الأثر والمحدثين .. فمنهم ابن النجار ، الذي كان شافعي المذهب ، كالتوحيدي .. وكان مؤرخا ، ليس طرفا في صراعات المتكلمين ، فهو إلى أهل «الرأي» أقرب .. وكذلك كان السبكي - الشافعي ، الذي أرخ لطبقات الشافعية - ومنهم التوحيدي - .. والذي - وهذا هام جدا - عانى من تعصب شيوخ عصره ، الذين اتهموه هو الآخر في عقيدته ! - .. فقرأ التوحيدي ، وكتب مدافعا عن عقيدته كتابة الباحث الخبير ، عندما قال : «ولم يثبت عندى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقعة فيه ، ووقعت على كثير من كلامه فلم أجده فيه إلا ما يدل على أنه كان قوى النفس ، مزدريا بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن يُنال منه هذا النيل .. ! .. !» أما ياقوت الحموي ، الذي قرأ الكثير من كتابات التوحيدي - وكان له فضل حفظ العديد من هذه الكتابات - فلقد كانت قراءاته هذه مصدرا للصورة المشرفة التي قدمها عن جهد التوحيدي ومكانته .. كما وقفت وراء ذلك الإنصاف أوجه للشبه بين ياقوت وبين أبى حيان .. فكلاهما لم يكن صاحب حسب ونسب - فياقوت كان رقيقا أعنته سيده - وأبو حيان كان من غمار الناس ، حتى أنه كان - كما قال ياقوت «عمدة لبني ساسان» - أى قائدا لجماعة من المتسولين^(١) !! - .. وكانا - التوحيدي وياقوت -

(١) (معجم البلدان) ج ١٥ ص ٥ .

يعيشان من التكسب بحرفة «الوراقة» . . ونسخ المخطوطات» . . وكانا - أيضا - من أهل الجمع والرواية للأفكار والأخبار ، أكثر مما كانا من أهل الإبداع والاجتهاد والابتكار . .

تلك هي ثمرات الوعي «بالخارطة المذهبية والحياتية» لأصحاب تلك الآراء المتناقضة والمتضادة ، التي تجاوزت في كتابات القدماء عن أبي حيان التوحيدي ، والتي انحدرت من كتب القدماء إلى كتابات المعاصرين ، دون تفسير لهذا التناقض والتضاد ! . .

* * *

وإذا كانت تلك هي ثمرة الوعي بالعامل المذهبي والخيرة الحياتية والتكوين الفكري لكتاب الترجمات . . فإن الفصيل الأول والأهم في تحقيق الاتهامات ، بل والمناقب والفضائل ، إنما هو لكتابات الأعلام الذين توجه إليهم الاتهامات ، أو تكال لهم المدائح وآيات الشناء . .

وهذا هو الذي تطمح إليه هذه الدراسة ، وصولا إلى فصل المقال فيما أحاط بالتوحيدي من حقائق ومن أكاذيب وأوهام ! . .

فماذا تقول كتابات التوحيدي عن الاتهامات التي أتهم بها ؟ . . وعن صفات وملكات المديح والإطراء التي أضفيت عليه ؟ . . لعلنا نسهم بذلك في التنبيه على عناصر منهاج موضوعي للتعامل مع التراث . .

هل كان التوحيدى زنديقا ؟ ! :

كان التوحيدى «ناسخا .. وورّاقا» ، وجامعا للروايات والأفكار والشواهد والمأثورات : أكثر مما كان «مبدعا حلاقا» .. وكانت إضافاته واستنباطاته وصياغاته تميزه عن غيره من «الرواة» الذين لم يمتلكوا مواهبه الأدبية والفنية التى تميز بها .. ومن هنا تأتى ضرورة التمييز ونحن نبحث عن عقيدته فى مؤلفاته ومصنفاته بين إضافاته وبين رواياته عن الآخرين .. ولحسن الحظ فلقد كان الرجل دقيقا وأميناً عندما نسب الروايات والمأثورات والأفكار إلى أصحابها ، يميز لها عمّا له من إضافات واستنباطات ..

وللأسف الشديد ، فإن هذا المنهاج البدهى ، فى التمييز بين إضافات الرجل ، التى تحسب له وعليه ، وبين الروايات التى رواها وجمعها وصنّفها .. هذا المنهاج لم يلتفت إليه ، ولم يلتزم به الذين اتهموه فى عقيدته قديما .. ولا الذين رووا آراء القدماء ، فى عقيدته ، وفى مكانته ، من الدارسين المعاصرين ! ..

فهل كان التوحيدى - فى إضافاته واستنباطاته - زنديقا ؟ ..
إن إبداعات الرجل تنفى هذا الاتهام على وجه القطع واليقين .. فهو لا يقف ، فقط ، عند الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - ولا عند البرهنة على وجوده ، وعلى إبداعه لهذا الوجود .. وإنصافه على حدود العقل ومحدوديته فى العلم الإلهى .. فيقول : «قاله الذى لا سبيل للعقل أن يدركه أو يحيط به أو يعجده وجدانا ، أو نى وأحرى أن يُفسد عنه عجزا أو استخذاء ، وتضاؤلا واستعفاء ، إلا بما وقع الإذن به من جهة صاحب الدين الذى هو مائت أزمّة انعقول ومرشدها إلى السعادات ، وواقفها عند الحدود ، وزاجرها عن التخطى إلى ما لا يجوز.

فعلى هذا قد وضح أن الصمت فى هذا المكان أعود على صاحبه من النطق ، لأن الصمت عن المجهول أنفع من الجهل بالمعلوم ، والتظاهر بالعجز فى موضعه كالاستطالة بالقدرة فى موضعها ، وليس للمخلق من هذا الواحد الأحد إلا الإثنية^(١) واليهوية ، فأما كيف ؟ ولم ؟ وما هو ؟ فإنها ظاهرة فى الرياح كما تسمع وترى^(٢) ! ... فهو مؤمن ، وداعية للإيمان بعجز العقل عن أن يكون الحاكم فى الإلهيات والغيبيات . .

والدين - الذى هو تكليف إلهى - عند التوحيدى هو الأساس والدعامة فى الخلق وفى سائر ميادين العمران للدينيا والآخرة جميعا . . وعن ذلك الاعتقاد يقول هو - وليس الذين رؤى عنهم - : «وأنا أقول : . . . كيف تصح الفتوة إذا خالفها الدين ؟ وكيف يستقر الدين إذا فارقت الفتوة ؟ . الدين تكليف من الله تعالى ، والفتوة أخلاق بين الناس ، ولا خلق إلا ما هذب به الدين ، ولا دين إلا ما هذب به الخلق^(٣) . فالدين هو العمود والدعامة فى عمارة الدارين^(٤) . . . فالدين تكليف إلهى ووحى سماوى ، ولا خلق إلا بالدين . .

(١) الإثنية - بكسر الهمزة والنون مشددة ، وفتح الياء مشددة - هى الوجوه الفردى اثنين ، مقابل المثالية - وهى - عند الصوفية - تدل على الذات الغيبة على أنها هى هى دون حاجة إلى بيان صفة . انظر (المعجم الفلسفى) - وضع مجمع اللغة العربية - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

(٢) (الإمتاع والمؤانسة) ج ٣ ص ١٢٤ ، ١٢٥ - تحقيق : د. أحمد أمين ، أحمد الزين . طبعة القاهرة ١٩٤٤ م .

(٣) (الصداقة والصدى) ص ٥٧ ، ٥٨ - تحقيق : على منولى صلاح . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

(٤) (الإمتاع والمؤانسة) ج ٢ ص ١٩٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٢ م .

ولافياهم للدينيا ولاسعادة في الآخرة إلا بالدين . . والدين عند التوحيدى ، ليس مجرد خلق ، ولا هو فقط إيمان بالله خالق وشعائر وعبادات . . وإنما هو أيضا شريعة حاكمة لتدبير البشر والسياسة والاجتماع الانسانى . . وهو - فى تقرير هذه الحقيقة يتحدث عن «الشريعة التى جعلها الله - تعالى - تمام الشرائع ومضافة إلى الرسول ﷺ الذى ختم الله - عز وجل - به الأنبياء والرسل^(١)» وكيف «أن الناظر فى أحوال اناس ينبغى أن يكون قاصدا بأحكام الشريعة، حاملا لتصغير والكبير على طرائقها المعروفة؛ لأن الشريعة سياسة الله فى الخلق، والمثلک سياسة الناس للناس، على أن الشريعة إذا حلت من السياسة كانت ناقصة، والسياسة متى عريت من الشريعة كانت ناقصة^(٢)» . .

وإذا كان الدين ، عند التوحيدى ، هو الدعامة والعمود للدينيا والآخرة ، وشريعته الإلهية هى قانون سياسة الله فى الخلق ، فإن هم الإنسان بالدار الآخرة ، عند التوحيدى ، يرجح همه بالدينيا لأنها هى المعاد والمآب ودار الخلود : فهى خير وأبقى . . . والإنسان فى هذا العالم، وإن بلغ المنتهى فى أمانى نفسه من كل علم، كالهندسة والحساب والنجوم والطب وسائر أجزاء الفلسفة ، وكذلك إن أشرف على غاية كل علم يتعلق بالأديان والآراء والمقالات والنحل ، فإن آخر مطالبه أن يعلم معاده، ويعرف منقبه . وكذلك - أيضا - إذا بلغ فى الدنيا كل حال علية ، وكل دولة سنية ، من المال والثروة واليسار والعزة والأمر والنهى والتأييد على أصناف البرية ، ونيل كل

(١) (المصائر والذخائر) ج ١ ص ٣٦٩ . انظر د . إبراهيم لكيلانى (التوحيدى) ص ٥٨ .

(٢) (الإمتاع والمؤانسة) ج ٢ ص ٣٣ .

شهوة ولذة ، وبلوغ كل إرادة وأمنية ، فإن آخر ما يقترحه أن يقف على ما يتحول إليه ، ويصير مرتنهبا ومفكوكا منه ، فقد صار النظر في هذه الخاصة والخاصة من أشرف ما في قوة الإنسان ، وأعلى ما في همته ، وأعظم فوائده^(١) .

فكفة الآخرة - عند الإنسان - هي الأرجح على ما في الدنيا من ثروات وسلطات . . وإذا قامت ثقافة الإنسان على علوم عالمي الغيب والشهادة ، فإن اهتمامه «بالمصير» أكبر من اهتمامه «بالمسير» ! . .

ولم يكن التوحيدى ، إزاء الدين والتدين ، مجرد «مفكر» يتحدث «بالمنطق» عن ضرورة من ضرورات سياسة الدنيا وتدبير الاجتماع الإنسانى . . وإنما كان - على المستوى الإنسانى والذاتى - متعلقا بحبال الدين طلبا لنجاته يوم الدين! . . فهو يتضرع إلى الله قائلا : «جعلنا الله - عز وجل - يوم الفزع الأكبر فى زمرة رسوله ﷺ كما جعلنا من أمته ، ورزقنا شفاعته ، كما ألهمنا طاعته بمنه وجوده^(٢) . .

ولقد كانت ثقته فى الله بلا حدود ، ورجاؤه فى عفوه ورحمته فى مستوى اليقين . . حتى أنه ، فى أخرج اللحظات ، وعندما كان يحتضر . . التفت حوله جمع من عارفيه وذويه ، فقالوا - وقد عابوا قرب لقائه لمولاه - : «اذكروا الله ، فإن هذا مقام خوف . وكل يسعى لهذه الساعة . وجعلوا يذكرونه ويعظونه» . . فما كان من

(١) (المقاسبات) ص ٣٥٤ .

(٢) (البصائر والذخائر) ج ١ ص ٣٦٩ . انظر : د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان

التوحيدى) ص ٩٨ .

التوحيدى إلا أن «رفع رأسه إليهم وقال : كأنى أقدم على جندى أو شرطى ! إنما أقدم على رب غفور»^(١) . . . وصعدت روحه إلى بارئها ، فى لحظة من لحظات الثقة فى عفو الله ! . . .
 فهل هناك مجال للقول بأن صاحب هذا «الفكر» وهذا «الموقف» كان زنديقا . . فضلا عن أن يكون شر زنادقة الإسلام ؟ ! . . أم أنه «ضيق أفق التعصب المذهبى» هو الذى رعى التوحيدى بهذا الاتهام ؟ ! . .

(١) ابن حجر العسقلانى (لسان الميزان) ج ٦ ص ٣٧٠ . انظر : حسن الملباوى (الله والإنسان فى فلسفة أبى حيان التوحيدى) ص ٨٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

وهل كان التوحيدى فيلسوفاً ؟

وإذا لم يكن التوحيدى زنديقا - يبطن الكفر ويظهر الإسلام -
فهل كان تفلسفه السبب فى رميهِ بالزندقة ، من قبل الذين لا
يمييزون بين الزندقة والتفلسف - وهم تيار فى ثقافتنا وتراثنا ؟ ..
إن عددا من الدارسين المعاصرين للتوحيدى ، قد أضفوا عليه -
من باب المدح لا القدح - صفة الفيلسوف .. فهو - عند البعض -
« كان فيلسوفاً بحث عن الحقيقة ، وأثار التساؤل إزاء جميع
المقولات الصعبة أو المحرمة فى زمانه ، وكان له جواب جريء
عميق .. وهو أول فنان وفيلسوف فن فى تاريخ الإبداع العربى ،
استطاع أن يقدم فلسفته الجمالية عن خبرة جمالية إبداعية ،
واستطاع أيضاً أن يلخص مفهوم فلسفة الفن عند العرب فى القرن
الرابع الهجرى^(١) .. » .

كما كان موضوعاً لرسالة ماجستير فى الفلسفة .. تحدثت عن « أن
صلة التوحيدى بالفلسفة .. والفكر والقضايا الفلسفية صلة وثيقة وأصلية ،
بمعنى أن له فى هذا الميدان علماً وإحاطة واهتماماً .. وهو فيلسوف
وجودى من حيث ارتباط فكره بحياته^(٢) .. » .

فهل حقاً كان التوحيدى فيلسوفاً .. حتى يجوز لنا أن نمدحه
بذلك ؟ .. أو أن يقدح البعض فى اعتقاده لذلك أيضاً ؟ ..
إن التوحيدى نفسه هو الذى يقرر أنه لم يكن من أهل هذا الميدان ..
فكتبابه (المقاسبات) .. والذى هو محاورات فلسفية ، تسود فيها

(١) د . عفيف البهنسى (فلسفة الفن عند التوحيدى) ص ٣٤ - ٣٥ . طبعة دمشق ١٩٨٧ م .

(٢) (الله والإنسان فى فلسفة أبى حيان التوحيدى) ص ١١ - ١١ .

الأفلاطونية الحديثة - فلسفة الحدس الصوفي - جميعه نقول
وماثورات وروايات يرويهها التوحيدى منسوبة إلى فلاسفة عصره،
الذين عاشهم، ونسخ مؤلفاتهم، ودون حواراتهم، وكتب أجوبة
الأسئلة التي وجهها إلى بعضهم.. وهو قد دون هذه المعاروات
الفلسفية استجابة لمن طلب منه ذلك.. وأعلن أنه مجرد راوية ومدون
لآراء الفلاسفة، وجامع لها.. وفي ذلك يقول - مخاطباً من طلب
منه هذا الجمع والتدوين - : «أطال الله حياتك.. لم يذهب عليّ
حظي في البدار إلى رسمك، والسرع إلى طاعتك، فيما أشرت
إليه، وحضضت عليه، من تصنيف أشياء من الفلسفة رويتها لك..
عن مشايخ العصر الذي أدركته والزمان الذي لحقتهم فيه.. فأقبلت..
أتألف ما شرد منها، وأنظم ما انتشر منها، وأرقّع بجهدى وطاقتى
شمليها، وأحلى بوسعى عطلها»^(١)...

وأكثر من هذا - في حسم هذه القضية - نجده في كتابه
(الصدّاقة والصدّيق) ينفي أن يكون من أهل هذا الفن وذلك
الميدان.. فبعد أن ينقل عن أبي سليمان السجستاني (٣٧٢هـ
٩٨٣م) - وهو من الفلاسفة المعاصرين الذين ينقل عنهم
التوحيدى، في كتبه، مئات الصفحات! - بعد أن ينقل عنه
كلاماً في الصدّاقة.. بمسك عن أن يدون في كتاب (الصدّاقة
والصدّيق) ما قاله أبو سليمان من الفلسفة، لأنه - بعبارة
التوحيدى - «لا يدخل في هذه الرسالة» و«لأنه من الفلسفة، التي
هي موقوفة على أصحابها، لا نراحمهم عليها، ولا نماريهم فيها»^(٢)..
فكما لم يكن الرجل «زنديقاً».. فإنه لم يكن «فيلسوفاً»!..

(١) (المقائسات) من ٥٤ - ٥٦ .

(٢) (الصدّاقة والصدّيق) من ٥٦ .

وهل كان معتزليا ؟:

وإذا لم يكن التوحيدى «زنديقا» .. ولا «فيلسوبا» .. فهل كان «معتزليا» ؟ .. حتى يذهب الذين صنفوا المعتزلة فى أهل الأهواء والزندقة إلى اعتباره زنديقا ، بل وأشر زنادقة الإسلام !؟ .. أو يذهب الذين يحتفون بالعقلانية الاعتزالية إلى الإشادة به كواحد من المتكلمين المعتزلة ؟؟ ..

لقد ذهب هذا المذهب - من القدماء - طاش كوبرى زاده (٩٠١ - ٩٦٨ هـ ، ٤٩٥ - ١٥٦١ م) الذى قال : «كان التوحيدى معتزليا يسلك مسلك الجاحظ ، شيخ الصوفية»^(١) !! .. وفى هذا القول تناقض غريب على عالم مثل طاش كوبرى زاده - ولعله من أخطاء النساخ التى فاتت على فطنة المحققين - إذ ما علاقة الاعتزال بالتصوف !؟ .. وما علاقة الجاحظ بمشيخة الصوفية !؟ ..

كما ذهب هذا المذهب - القائل باعتزال التوحيدى - كثير من المعاصرين^(٢) .. بل ونسبوا التوحيدى إلى الاعتزال ، مع استبعاد الصاحب بن عباد من هذا الاعتزال .. فقالوا : «كان التوحيدى يتفلسف على طريقة المعتزلة ، ميالا إلى الجدل والأبحاث العقلية ، بخلاف الصاحب بن عباد ، الذى كان يحب العلوم الشرعية ، ويبغض الفلسفة وما يشبهها من علوم الكلام»^(٣) .. وهذا نموذج لمنهاج الخلط الذى ساعد عليه الانطلاق من آراء كتّاب الطبقات ، لا من مصنفات الذين ندرس مقالاتهم ومذاهبهم .. ولو وعوا

(١) (مفتاح السعادة) ج ١ ص ٢٣٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٢) انظر - على سبيل المثال - د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص ٥٥ .

(٣) المرجع السابق . ص ٢٥ .

كتابات التوحيدى لعلمو أن تأثره بالجاحظ إنما كان فى الأسلوب ،
لا فى الأصول الخمسة للاعتزال . .

فالمعتزلة لم يذكروا اسم التوحيدى فى طبقات رجالهم . . بينما
ذكروا اسم الصحاب بن عباد^(١) . . وأصالة الصحاب فى فكر
الاعتزال تتعدى وجود اسمه فى كتب طبقات المعتزلة ، لأن له
كتبا شاهدة على مذهبه هذا . . ومنها (الإبانة عن مذهب أهل
العدل)^(٢) . .

بل إن التوحيدى - الذى عاش فى «الرى» - معاصرا للقاضى
عبد الجبار بن أحمد الهمدانى (٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م) - الذى مثل
صحوة الاعتزال بعد اضطهاد المتوكل العباسى (٢٠٦ - ٢٤٧ هـ
٨٢١ - ٨٦١ م) لفكرهم وأعلامهم - دون أن ترد فى كتاباته إشارة
إلى هذه الصحوة الاعتزالية وإمامها - هو - التوحيدى - الذى
يشهد بأن الصحاب بن عباد كان على مذهب المعتزلة . . فعندما
يسأله الوزير ابن سعدان (٣٧٥ هـ - ٩٨٥ م) :

« إني أريد أن أسألك عن ابن عباد . . » . . يجيب التوحيدى :
« . . إن الغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم . .
وهو يدين بالوعيد^(٣) » . .

فإن يقال عن التوحيدى : إنه كان معتزليا ، بخلاف الصحاب بن
عباد ، الذى كان يحب العلوم الشرعية . . لا علم الكلام . . هو

(١) انظر : أبو القاسم البلخى ، القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى ، الحاكم
الجسمى (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٣٦١ .

تحقيق : فؤاد سيد ، طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م

(٢) انظر طبعة بغداد - سنة ١٩٦٣ م - لهذا الكتاب ، بتحقيق : محمد حسين ال ياسين .

(٣) (الإمتاع والمؤانسة) ج ١ ص ٥٢ - ٥٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م .

كلام غريب ، فضلا عن أنه يقيم تناقضا غريبا بين الاعتزال وبين العلوم الشرعية . . وبين المعتزلة وعلم الكلام ، الذين كانوا هم رواده وواضعيه؟ . .

* * *

وفوق كل ذلك ، فإن مذهب التوحيدى فى القضاء والقدر - الجبر والاختيار - . . وفى العقل والعقلانية ، يجعله خارج دائرة الاعتزال بلا جدال ! . .

فهو فى قضية الجبر والاختيار ، لا يقف موقف المعتزلة مع «الاختيار» . . وإنما يقف موقف من تكافأت لديهم أدلة «الجبر» مع أدلة «الاختيار» - وهو مالا يقول به معتزلى على الإطلاق . .

فعندما يسأل الوزير ابن سعدان التوحيدى ، فيقول :

- «كنت حكيما لى أن العامرى - أبو الحسن العامرى (٣٨١هـ

٩٩١م) - صنف كتابا عنوانه (إنقاذ البشر من الجبر والقدر) .

فكيف هذا الكتاب؟» . . تأتى إجابة التوحيدى ، معبرة عن

تكافؤ أدلة كل من الجبر والاختيار لديه . . فيقول :

- «هذا الكتاب رأيت به خطه عند صديقنا وتلميذه أبى القاسم

الكاتب ، ولم أقرعه على العامرى . ولكن سمعت أبا حاتم الرازى

يقرؤه عليه .

وهو كتاب نفيس ، وطريقة الرجل قوية . ولكنه ما أنقذ البشر من

الجبر والقدر ، لأن الجبر والقدر اقتسما جميع الباحثين عنهما

والناظرين فيهما . . إن من لحظ الحوادث والكوائن والصوارد والأوتى

من معدن الإلهيات ، أقرب للجبر ، وعمرى نفسه من العقل والاختيار

والتصرف والتصريف ، لأن هذه وإن كانت ناشئة من ناحية البشر ، فإن

منشأها الأول إنما هو من الدواعى والبواعث والصوارف والموانع التى

تنسب إلى الله الحق . فهذا هذا .

فأما من نظر إلى هذه الأحداث والكانات والاختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسبين الفاعلين المخبرين اللاتمين للمؤمن المكفين، فإنه يعلقها بهم ويلصقها برفايتهم، ويرى أن أحدا ما أتى إلا من قبل نفسه وبسوء اختياره وبشدة تقصيره وإيثار شقائه. والملحوظان صحيحان، واللاحظان مصيبان، لكن الاختلاف لا يرتفع بهذا انقول والوصف، لأنه ليس لكل أحد الوصول إلى هذه الغاية، ولا لكل إنسان اطلاع إلى هذه النهاية^(١)...

فالقول بكل من الجبر والاختيار - عند التوحيدى - صحيح - «الملحوظان صحيحان واللاحظان مصيبان» . . وهذا مالا يقول به أحد من أهل الاعتزال . .

وكذلك رأى التوحيدى فى العقل ومقامه . . لا يقول به أهل الاعتزال . . فالمعتزلة يجعلون الأدلة أربعة، لا ثلاثة . . فهى - على هذا الترتيب - : العقل، والكتاب، والسنة، والإجماع^(٢) - مع التنبية على أن تقديم العقل على الكتاب والسنة إنما هو «تقديم ترتيب»، لأنه هو سبيل النظر والاجتهاد فيهما، وليس «تقديم تشريف وتعظيم» - . . وليس هكذا رأى التوحيدى فى العقل والعقلانية . .

فهو وإن تحدث عن العقل باعتباره «خليقة الله، القابل للفيض الخالص الذى لا شوب فيه ولا قذى، وإن قيل: هو نور فى الغاية لم يكن ببعيد، وإن قيل: إن اسمه مُغْنٍ عن نعته لم يكن بمنكر»^(٣) . .

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٢، ٢٢٣ .

(٢) (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ١٢٧ .

(٣) (الإمامة والمؤانسة) ج ٣ ص ١١٦ .

.. إلا أننا نجد قلق موقفه من العقل عندما يقول : « .. والعقل سريع الخول - (التحول) - خفى الخداع^(١) » ! ..

بل ونراه يقول بما لا يقول به معتزلى ، عندما يفضل منهاج «أهل الحديث» ، بل و «إيمان العجائز» على منهاج المتكلمين وعقلانية العقلانيين وتأسيس الإيمان على البراهين . . فيقول عن طريقة المتكلمين : «إن الطريقة التى التزموها وسكوها لا تفضى بهم إلا إلى الشك والارتياب ، لأن الدين لم يأت بكلمة وكيف فى كل باب ، ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصار الأثر مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر . والقلب الخالى من الشبهة أسلم من الصدر المحشو بالشك والريبة . ولم يأت الجدل بخير قط . وقد قيل : من طلب الدين بالكلام الحد ، ومن تتبع غرائب الحديث كُذِب ، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر . وما شاعت هذه الرخصة جزافا ، بل بعد تجربة كررها الزمان ، وتناولت عليها الأيام ، يتكلم أحدهم فى مائة مسألة ويورد مائة حجة ثم لا ترى عندهم خشوعا ولا رقة ، ولا تقوى ولا دمعة ، وإن كثير من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتاجون ولا يناظرون ولا يكرمون ولا يفضلون خير من هذه الطائفة وألين جانباً ، وأخضع قلباً ، وأتقى الله عز وجل وأذكر للمعاد ، وأيقن بالشواب والعقاب ، وأقلق من الهفوة ، وأتوذ بالله من صغير الذنب ، وأرجع إلى الله بالتوبة . ولم أر متكلماً فى مدة عمره بكى خشية ، ولا دمعت عينه خوفاً ، أو أقلق عن كبيرة رغبة ، يتناظرون مستهزئين ، ويتحاسدون متعصبين ، ويتلاقون متخادعين ، ويصنّفون متحاملين ، جدّ الله عروفتهم ، واستأصل شأفتهم ، وأراح العباد والبلاد منهم ، فقد عظمت البلوى بهم ، وعظمت أفتهم على صفار الناس وكبارهم ، ودب داؤهم ،

(١) المصدر السابق - ج ١ ص ٩ .

وعسر دواؤهم، وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعفاً
وساكناً متجمعاً^(١)...^(٢)

ونحن هنا لا نقاش صواب أو خطأ هذا الذى قال به
التوحيدى .. وإنما نسوقه تنبيهاً على خطأ ، بل وغفلة الذين تحدثوا
عن اعتزاليته وعقلانيته ، واشتغاله بالفلسفة وعلم الكلام ..
فالرجل يفضل منهاج «أصحاب الحديث أنصار الأثر» على منهاج
«المتكلمين» ، بل ويتهم المتكلمين فى دينهم ، قائلاً : «من طلب
الدين بالكلام الخد» ..

ويتمنى استئصال شأفتهم ، وإراحة العباد والبلاد منهم ، حتى
لكأنه نوح الذى يدعو الله ألا يذر على الأرض منهم دياراً ...
فأنى تكون للرجل صلة بالاعتزال والكلام والفلسفة
والعقلانية؟! .. إن قراءة آثار التوحيدى ، ووعى دلالات إضافاته
واستنباطاته هو الفيصل فى تحديد موقعه من تيارات الفكر ..
وليست أحكام كتاب التراجم والطبقات ، تلك التى تلونت
بالعصبية المذهبية لأصحابها .. ثم تناقلها اللاحقون عن
السابقين ، حتى ابتلع طعمها كتابنا المعاصرون ! ..

(١) متجمعاً : أى ضارباً بنفسه الأرض من الوجع .

(٢) (الإمتاع والمؤانسة) ج ١ ص ١٤٢ .

وهل كان متصوفاً ؟

لقد كانت بداية الحديث عن علاقة أبى حيان التوحيدي بالصوفية والتصوف ، انطلاقاً من كلمتين ذكرهما ياقوت الحموى ، وهو يترجم له ، عندما قال - وهو يعدد أوصافه - : « وشيخ الصوفية »^(١) .. وتناقل الذين كتبوا عن التوحيدي هذا الوصف دون تحقيق - فى التراجم القديمة - واستناداً - فى بعض الدراسات المعاصرة - إلى كتابه (الإشارات الإلهية) - الذى تشيع فيه الأدعية الصوفية ..

لكننا نلاحظ أن ياقوت الحموى ، الذى وصف التوحيدي بأنه «شيخ الصوفية» ، هو ذاته الذى تحدث عنه باعتباره «رئيس جماعة من المتسولين - الساسانية» ! .. كما وصف خلق التوحيدي بالأوصاف التى تنفى عنه أية علاقة بحقيقة التصوف والصوفية الحقيقيين - فضلاً عن أن يكون شيخهم - وذلك عندما قال كلماته المعبرة : « .. وكان التوحيدي مجبولاً على الغرام بثلب الكرام .. ! » ثم إنه - ياقوت - هو الذى حكى من علاقات التوحيدي بالدنيا ومتاعها وأخيارها وعرضها ما يتناقض كل التنافض وأشدّه مع نهج الصوفية والمتصوفين ! ..

فما هى حقيقة هذا الموضوع ؟ ..
لو كان التوحيدي شيخاً للصوفية ، أو حتى من أهل التصوف ، لُترجمت له كتب الطبقات التى ترجمت للصوفية .. لكن هذه الكتب قد خلت تماماً من أى ذكر لأبى حيان ..
ثم إن أخلاق الرجل وصفاته ، التى وصفه بها واحد من أبرز

(١) (معجم البلدان) ج ١٥ ص ٥

علماء عصره ، وهو الشيخ أبو الوفاء المهندس البوزجاني - الذي أحسن إلى التوحيدى كما لم يحسن إليه أحد من عارفيه ، وصبر على خلقه على حين انقلب عليه الكثيرون بسبب هذا الخلق .. فالتقطه من أوساط الدهماء والمتسولين وعوام المنتسبين للصوفية ، فعينه حارسا للبيمارستان العضدى ، ثم قدمه إلى الوزير ابن سعدان ليكون مسامرا للوزير فى مجلسه ، وطلب منه تدوير هذه المسامرات - (الإمتاع والمؤانسة) - إن الصفات التى كان عليها التوحيدى ، والتى ذكرها له الشيخ أبو الوفاء - مواجهة فى عتاب قاس - وهى التى سلم بها التوحيدى ولم ينكرها أو يجادل فى اتصافه بها ، كلها تنفى عن التوحيدى أية أهلية للتصوف وأية علاقة بأهل هذا الطريق ..

لقد كتب إليه أبو الوفاء المهندس ، عندما رآه يتنكر للبدن التى أحسنت إليه - بعد أن أصبح مسامرا للوزير ابن سعدان - فقال له : « اتظن بقراارك - (غفلتك) - وغصارتك (جهالتك وبلاهتك) - وذهابك فى فسولتك (ضعفك وخستك وقلة مروءتك) - التى اكتسبتها بمخالطة الصوفية^(١) والغرباء والمجتهدين - (المتسولين للعطاء) الأذنياء الأردياء ، أنك تقدر على مثل هذا الحال (التنكر للإحسان) - ، وأنا منك على حسن الظن بك^(٢) ..! »

ولم ينكر أبو حيان التوحيدى ، فى جوابه على رسالة الشيخ أبى الوفاء المهندس ، أيا من هذه الصفات التى وصفه بها - والتى تكفى واحدة منها لتنفى عنه أية علاقة بالصوفية والتصوف - ..

(١) وهذه الأوصاف دليل على أن المخالطة كانت للدهماء المحسوبين على الصوفية إذ إن مخالطة الصوفية لا تثمر الحسة وقلة المروءة ..

(٢) (الإمتاع والمؤانسة) ج ١ ص ٧ .

وإنما زاد هذه الحقيقة تأكيداً عندما تحدث عن حبه لأغراض الدنيا ، وتعلقه بمظاهرها ، وحرصه على متاعها - الأمر الذى يباعد ويناقض بينه وبين التصوف وأهله - فقال : «إن هذه العاجلة محبوبية، والرفاهية مطلوبة، والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة، والدنيا حلوة خضرة، وعذبة نضرة.. وترك خدمة السلطان غير الممكن، ولا استطاع إلا بدين متين، ورغبة فى الآخرة شديدة، وغطام عن الدنيا صعب^(١)..»!!

فهو يعلن تعلقه الشديد بزين الحياة الدنيا ومتاعها ، وسعيه للمكانة عند الوزراء بكل حيلة وبكل قوة ، وافتقاره إلى الصوارف عن هذا الطريق - من «دين متين ، ورغبة فى الآخرة شديدة ، وغطام عن الدنيا» - ، وهى الصوارف التى تميز بها أهل الطريق . . . والتوحيدي لا يدع مجالاً للشك فى «دنيوية منهاجه فى الحياة» . . . فيصرح برفضه للاعتدال المتوازن الذى يتيح للإنسان التوسط الجامع بين الدنيا والآخرة ، ويكشف عن فكر غريب ينكر هذه الوسطية ، عندما يقيم تناقضاً كاملاً بين «الدنيوية» و «الآخروية» - فى الوقت الذى أفصح فيه عن عشقه لمتاع الدنيا وغرامه بمظاهرها - فيقول : «وربما قال بعض المتكلفين : قد قال بعض السلف : (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا من ترك الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه) . وهذا كلام مقبول الظاهر ، موقوف الباطن . وربما قال آخر من المتقدمين : (اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) . وهذا أيضاً كلام مُنمَّق ، لا يرجع إلى معنى محقق . أين هو من قول المسيح - عليه السلام - حين قال : الدنيا والآخرة

(٣٨) المصدر السابق . ج ١ ص ١٣ .

كالمشرق والمغرب ، متى بعد أحدكم من أحدهما قرب من الآخر ، ومتى قرب من أحدهما بعد من الآخر . وأين هو من قول الآخر : الدنيا والآخرة ضُرتان ، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأخرى .

وهذا الانسان .. لا يستطيع أن يجمع بين شهواته ، وأخذ حظوظ بدنه ، وإدارة إرادته ، وبين السعي في طلب المنزلة عنده ربه بأداء فرائضه ، والقيام بوظائفه ، والثبات على حدود أمره ونهيهِ !!

فهل هناك علاقة بين هذا الموقف ، الرافض للاعتدال والوسطية والتوازن الجامع بين الدنيا والآخرة ، وبين موقف الصوفية الذين ولّوا وجوههم إلى الآخرة مديرين ظهورهم للدنيا ؟ ..

بل إن التوحيدى - الذى أفصح عن طلبه للمكانة عند اوزراء «بكل حول وقوة» - والذى كانت حياته ومأساته ثمرة لممارسته هذا الاتجاه - يتوسل إلى الشيخ أبى الوفاء المهندس توسلا يعف القلم عن وصفه بما يستحقه من أوصاف !! . . فيكتب إليه فى ختام كتاب (الإمتاع والمؤانسة) يقول له : .. لم يبق فى هذه الجماعة على فقره وبؤسه ، ومره ويأسه غيرى .. خلّصنى أيها الرجل ، من التكلف .. اشترنى بالإحسان ، اعتبدنى بالشكر ، استعمل لسانى بفنون المدح .. اجبرنى فبأنى مكسور .. شهّرئى فبأنى غفل ، خلّى فبأنى عاطل .. سرّجنى رسولاً إلى صاحب البطائح ، أو إلى أبى السؤل الكردي ، أو إلى غيره ممن هو فى الجبال ، أو دُع إلى ألف درهم ، فبأنى أتخذ رأس مال ، وأشارك بقال المحلة فى درب الحجاب .. أو تقدّم إلى كسج ، البقال حتى يستعين بى فى بيع الدفاتر !!

(١) المصدر السابق ، ج١ ص ١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٨ .

فهل هذه أخلاقيات ومقاصد وتطلعات الصوفية ، أهل الطريق ،
من أية أمة أو دين ، في أى زمان أو مكان ؟ ..

لقد كان التوحيدى «ناسخا .. وراقا» ، لكنه لم يقنع - ككثيرين
من أعلام علماء عصره وغيره من العصور ، الذين عاشوا على
التكسب من نسخ المخطوطات ، مع التعلم منها ، وتكوين المكتبات
الزاهرة بالعلوم والفنون - فسمى هذه الحرفة (حرفة الشؤم) ..
وسعى إلى «العاجلة المحبوبة ، والرفاهية المطلوبة ، والمكانة عند
الوزراء ، وجمع الشهوات والحظوظ» ، حتى ولو كان ذلك بتزلف
العميد ، والمشاركة فى «بقالة بدرج الحاجب» - أو «بيع الدفاتر
عند (كسج) البقال» ؟ .. بل حتى لو استدعى الأمر «بيع الدين ،
وإخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه»^(١) ..!

ثم إن خلقه فى طلب المكانة عند الوزراء - «بكل حول وقوة» -
قد حال بينه وبين النجاح فى هذا الميدان ، فانتهدت كل تجاربه مع
الوزراء - من المهلبى (٢٩١ - ٣٥٢هـ) - وزير معز الدولة ،
ببغداد .. إلى أبى الفضل ابن العميد (٣٦٠هـ) وزير ركن الدولة
فى خراسان .. إلى ابنه أبى الفتح ابن العميد (٣٣٧ - ٣٦٦هـ)
وزير ركن الدولة فى الرى .. إلى الصاحب بن عباد (٣٢٦ -
٣٨٥هـ) وزير مؤيد الدولة ، وفخر الدولة ، فى الرى .. إلى ابن
العارض أبى عبد الله الحسن بن أحمد بن سعدان (٣٧٥هـ) وزير
صمصام الدولة فى بغداد .. إلى أبى القاسم المدجى وزير صمصام
الدولة فى شيراز - .. انتهت كل تجاربه مع جميع هؤلاء الوزراء
بغضبهم عليه ، وفراره منهم ، وطلبهم إياه .. فلقد كان - كما قال
ياقوت الحموى - : «مجبولا على الغرام بثلث الكرام» !! وفى

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٣ .

تأمل أبعاد هذه الكلمات التي اختارها ياقوت المفتاح لمأساة هذا الرجل ، الذي أراد استبدال لذات الدنيا - حتى لو اقتضت «بيع الدين وإخلاق المروءة وإرافة ماء الوجه» - بالوراقة والنسخ - التي سعد بها كثير من أعلام العلماء - على حين سماها هو «حرفة الشؤم ... وتكرار ما فى الكتب»^(١)!! ..

فهل هذا منهاج صوفى؟ .. وهل هذه هى طريق المتصوفين من أهل الله؟! .. لقد طلب التوحيدى المكانة عند الوزراء ، حتى ولو كان ذلك - كما قال - «بيع الدين وإخلاق المروءة» .. وكان فى طلبه لهذه المكانة رهن إشاراتهم فى كل شىء ... حتى أن الوزير ابن سعدان ، يطلب إليه فى إحدى الليالى أن يخوض به فى بحر الخلاعة والمجون ، فيقول له : «تعال نجعل ليلتنا هذه مجونية، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر.. فهات ما عندك، فتكون حصيلة أبى حيان أحد عشرة صفحة من المجون الداعر والدعارة المأجنة .. حبذا لو تأملها الذين يتحدثون عن مشيخة التوحيدى للصوفية فى العصر الذى عاش فيه»^(٢)!! ..

أما كتاب (الإشارات الإلهية) - الذى يستدل به البعض على تصوفه - فإن من دارسى التصوف من يشكك فى نسبته إلى التوحيدى ، انطلاقاً من مفاجاة منهجه فى الحياة لما تعارف عليه أهل التصوف^(٣) .. فالتصوف «تجربة حياة» .. وليس نظريات تكتب ولا كلاماً يقال !! ..

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٠ - ٦٠ ..

(٣) د . يوسف زيدان «التوحيدى والصوفية» - مجلة (الهلal) عدد نوفمبر سنة ١٩٩٥م

وهل أحرق التوحيدى كُتبه؟:

فى رسالة جوابية ، كتبها التوحيدى إلى القاضى أبو سهل على ابن محمد - وحفظها ياقوت الحموى - تحدث أبو حيان عن إحراقه كتبه ، وبرر هذا الإحراق ، وهو يرد على اعتراضات القاضى أبى سهل . . وتاريخ هذه الرسالة شهر رمضان سنة ٤١٠ هـ - إبريل - مايو سنة ١٠٠٩ م .

ولقد فهم السيوطى - خطأ - أن هذه الكتب التى أحرقها التوحيدى هى «مؤلفاته . . ومصنفاته» ، و«اجتهد» لتوفيق بين هذا الفهم وبين وجود مؤلفات ومصنفات للتوحيدى ، فقال : «ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتبت عنه فى حياته ، وخرجت عنه قبل حرقها^(١) . . .» . ومنذ ذلك التاريخ ، ظل الذين يكتبون عن التوحيدى يسوقون هذا الفهم الخاطئ - بل الوهم الذى لا ظل له من الحقيقة - كدليل على إدانة عصر التوحيدى - الذى الجأ هذا المؤلف إلى إحراق ثمرات عقله^(٢) - بل واتخذ نفر من منحرفى الهوية من هذا «الفهم - الوهم» دليل إدانة للحضارة التى ضاقت بعقريه أبى حيان ! . . مع أن الرجل قد عاش فى عصر ازدهار الفكر الحر ، والحرية الفكرية ، التى جعلت مصنفاته «معرضاً» لختلف المذاهب والمقولات والمقالات ! . .

ولعلنا - فى هذا المقام - نكون أول من يعرض لهذا «الفهم - الوهم» بالتحقيق والتفنيد . . إن الكتب التى أحرقها أبو حيان هى

(١) (بغية الوعاة) ص ٣٤٩ .

(٢) شمين (دائرة المعارف الإسلامية) - مادة «أبو حيان التوحيدى» - الطبعة العربية الثانية - دار الشعب القاهرة .

«مكتبته» وليست «مؤلفاته ومصنفاته»... «مكتبته» التي «جمعها» ، وليست كتبه التي «أنفها وصنفها».. وهي إحدى مكتبات مرحلة من مراحل حياته، جمعها في العشرين عاما التي سبقت سنة ٤٠٠هـ أي بعد فشل تجاربه في طلب المكانة عند الوزراء.. وهو قد أحرقها لأنه ليس له من الولد والأهل من يرث هذه المكتبة الجامعة، التي جمعها هذا «الناسخ» الوراق، العظيم.. وأصحاب «المكتبات» يتركون مكتباتهم للورثة، أما مؤلفاتهم فإنهم يؤلفونها للناس، وليس للوارثين!..

ولقد اقتدى أبو حيان، في إحراق مكتبته، بعدد من الذين سبقوه إلى هذا الصنيع - من علماء عصره - وليس منهم من ضاعت مؤلفاته بإحراقه لها، كما أن حديث التوحيدى عن صنعهم هذا - كما سنرى في نص رسالته - قاطع بأن الكلام إنما هو عن إحراق «المكتبات»، وليس عن إحراق «المؤلفات والمصنفات»..

ثم إن وجود مؤلفات ومصنفات التوحيدى - والتي لم يفقد منها إلا كتاب واحد - شاهد على صدق هذا الذى نقول!..

يتحدث التوحيدى - فى رسالته إلى القاضى أبى سهل - عن الكتب التى أحرقها، فيقول: «... إحراق كتبى النفيسة».. والمرء لا يصف مؤلفاته بالنفاسة، وإنما يترك ذلك للآخرين.. ويتحدث عن سبب هذا الإحراق فيقول: «وما شحذ العزم على ذلك.. أنى فقدت ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا، وصاحبا قريبا، وتابعاً أديباً، ورئيساً منيباً.. فشق على أن أدعها لقوم.. جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد..» وليس هناك فى الدنيا من يؤلف لابنه أو صديقه أو صاحبه.. وإنما يؤلف المؤلفون للناس، مطلق الناس، ولأنهم لا بد وأن يسطروا أفكارهم على الأوراق!.. فالرجل هنا يتحدث عن إحراق مكتبته النفيسة، لأنه لم يكن لديه وارث يرثه إياها..

ثم هو يضرب الأمثال بمن اقتدى بهم في هذا العمل ، فيضع أيدينا على ما يؤكد أن المراد هو إحراق «المكتبات» لا إحراق «المؤلفات» . . فيقول : . . وبعد ، فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم . . منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء ، دفن كتبه في باطن الأرض ، فلم يوجد لها أثر . وهذا داود الطائي . . ويقال له : تاج الأمة ، طرح كتبه في البحر ، وقال يناجيها : نعم الدليل كنت ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول . وهذا يوسف بن أسباط ، حمل كتبه إلى غار في جبل ، وطرحها فيه ، وسد بابه ، فلما عوتب في ذلك قال : دلتنا العلم في الأول ، ثم كاد يضلنا في الثاني ، فهجرتنا لوجه من وصلناه ، وكرهناه من أجل من أردناه . وهذا أبو سليمان الداراني ، جمع كتبه في ثمنور وتجرها بالنار ثم قال : والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك ! . وهذا سفيان الثوري ، مزق ألف جزء وطيها في الريح ، وقال : ليت يدي قطعت من هاهنا ، بل من هاهنا ، ولم أكتب حرفا . وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي ، سيد العلماء ، قال لولده محمد : لقد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل ، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار^(١) . .

وجميع هؤلاء الأعلام ، الذين اقتدى بهم التوحيدى في إحراق «مكتباته» ، قد أحرقوا أو دفنوا أو أغرقوا «مكتباتهم» وليس «مؤلفاتهم ومصنفاتهم» . .

فأبو عمرو بن العلاء (٧٠ - ١٥٤ هـ ، ٦٨٩ - ٧٧٠ م) «قد روى عن العرب الفصحاء كتابا ملأت بيتا له إلى قريب السقف واتفق له أن تنسك ، فأخرج هذه الكتب وأحرقها - أو دفنها في باطن الأرض

(١) (معجم الأدباء) ج ٥ ص ١٧ - ٢٢ .

- فلما رجع إلى علمه الأول ، لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . . .
ولقد ذكر له ابن النديم - فى (الفهرست) - كتابا فى القراءات ،
وعدة كتب أخذت عنه ، منها (كتاب النوادر عن أبى عمرو بن
العلاء) و (كتاب قراءة أبى عمرو ، لابن مجاهد) و (كتاب ما
خالف فيه ابن كثير أبا عمرو) لابن شنبوذ ، و (كتاب الفصل بين
أبى عمرو والكسائى) و (كتاب الخلاف بين أبى عمرو والكسائى)
لأبى طاهر عبد الواحد البغدادى . . وله متفرقات ، فى الشعر
والشعراء ، واللغة ، والنحو ، متفرقة فى كتب الأدب والطبقات^(١) . .
فالذى أحرقه أبو عمرو بن العلاء هى المكتبة التى ملأت بيضا إلى
قريب السقف ، وليست المؤلفات والمصنفات . .

وتاج الأمة ، داود الطائى ، قد طرح فى البحر - عندما تنسك
وتصوف - الكتب التى اتخذها «دليلا» فكربا له ، وذلك بعد أن
«وصل» إلى «الحق» - سبحانه وتعالى - ولم تعد له حاجة إلى
«الدليل» . . ومعنى هذا أن الحديث إنما كان عن الكتب التى كان
يستدل بها ويرجع إليها ، وليس عن المؤلفات والمصنفات . .

وما تخلص منه يوسف بن أسباط كان «مكتبته» التى احتاجت إلى
«غار فى جبل» طرحها فيه ، وسد بابها . . وليس هذا بالوصف لمؤلفاته
ومصنفاته . . ثم هو - عند ما عوتب فى ذلك - تحدث عن أنه إنما دفن
«الدليل» ، أى المراجع والمصادر ، وليس المؤلفات التى ألفها . .

والذى مرقه سفيان الثورى ، وطبّره فى الريح ، هو «مكتبته» التى
بلغت عدة أجزاء كتبها ألف جزء . . ولم يقل : عاقل : إن هذا هو رقم
المؤلفات التى صنفها هذا الفقيه ! . .

فحديث التوحيدى إنما هو عن إحراق «مكتبته» لا اقتباره لوارث

(١) (دائرة المعارف) نفوذ أرقام البستانى . طبعة بيروت سنة ١٩٦٢م

يرثها ويحافظ عليها.. وليس عن مؤلفاته ومصنفاته.. والشواهد التي
ساقها قاطعة بأن هذا هو المراد..

ثم إن الحصر الدقيق لمؤلفات التوحيدى - والذي قام به واحد من أبرز
المتخصصين فيه - تأليفًا وتحقيقًا - وهو الدكتور إبراهيم الكيلانى -
يقول لنا: إن عناوين هذه المؤلفات قد بلغت خمسة وعشرين عنوانًا،
المحفوظ بين أيدينا الآن منها اثنا عشر كتابًا، هي أهم وأكبر مؤلفاته،
ومنها اثنا عشر كتابًا اطلع عليها المؤرخون وكتاب التراجم بعد عصر
التوحيدى، وأثبتوا في كتبهم الكثير من صفحاتها.. وليس مفقودًا
من عناوين هذه المؤلفات إلا كتاب (النوادر) - الذي ذكره التوحيدى
في (المقابسات)^(١)... فمؤلفات الرجل لم تحرق.. وكانت سعيدة الحظ
عند ما نجا معظمها من عاديّات الدهر، وما فقد منها كان فقده في
عصور متأخرة، بعد أن اطلع عليها عدد من الكتاب والمؤرخين.. ولعل
بعض هذه المصنفات «المفقودة» أن يكون ضمن مالم يفهرس ولم ينشر
من ملايين المخطوطات..

هكذا أثمر «الوعى» بنصوص التوحيدى ذاته تبيد كثير من
«الأوهام» التي توارثها الخلف عن السلف: حول «عقيدة
التوحيدى»، و «مذهبه» وحول ما صنف وألف من آثار...

(١) د: إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى) ص ٣٧ - ٥٩.

مكانة التوحيدى بين «الرواية» و «الإبداع»:

إن مفتاح فهم المكانة الحقيقية للتوحيدى ، بين معاصريه ، وفى تراثنا العربى الإسلامى ، هو إدراك «الحرفة» التى احترفها ، و«الموهبة» التى امتلكها . فلقد كان الرجل «ناسخا.. وراقا» ، أتاحت له حرفته هذه أن يعيش فى كنوز الفكر ويطلع على ثمرات العقول ، ويعايش أكبر العلماء والمبدعين فى مختلف العلوم والفنون ، ومن كل الفلسفات والديانات ... وكان صاحب موهبة أدبية وملكة فنية ، أعانته على التقاط الجواهر من بطون الكتب وأفواه العلماء ، بل واستخراجها بالأسئلة التى كان يثيرها ويلقيها على كثير من هؤلاء العلماء المبدعين .. وعلى أن يصوغ الكثير من هذه الأفكار بالأسلوب البلاغى الذى اقتفى فيه أثر الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ ، ٧٨٠ - ٨٦٩ م) .. فهو «رواية.. محقق» ، ينسب الأفكار لأصحابها ، وينبه على مواطن إضافاته واستنباطاته .. ومواطن الرواية والنقل والإملاء ، على نحو يجعل منه «محققا» بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح ، أكثر مما هو «مبدع ومبتكر وخلاق» ! أما مسألة الرجل ، فهو خلقه ، الذى جعله يتمرد على حرفة «النسخ» والوراقة .. وهى التى عاش منها أعلام كثيرون منهم الجاحظ .. والسيراهى .. وأبو على مسكويه .. وياقوت الحموى وتطلعه إلى صحبة الأمراء والنوزراء ، «كعالم مبدع» ، وليس «كناسخ وراق» .. ذلك هو مفتاح فهم حقيقة مكانة التوحيدى .. وسبب المأساة التى صاحبتة ، كظله ، حتى انتقل إلى رحمة الله ..

كان الصاحب بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ ، ٩٣٧ - ٩٩٥ م) أبرز وزراء عصره ، ومن أبرز أدباء وعلماء ذلك العصر أيضا ، وكانت له رعاية للعلم والعلماء .. ولقد دخل أبو حيان التوحيدى إلى محيط

الصاحب كناسخ لرسائل الصاحب ومؤلفاته ، ولمخطوطات التي يريد ضمها إلى مكتبته . . . وعندما أراد التوحيدى القيام - بالنسبة للصاحب - بدور « الناقد » صاحب « الرأى » ، الذى ينظر فى مؤلفات ابن عباد ، ويختار منها ، فتطلع إلى دور غير دور « الناسخ - الوراق » كانت غضبة الصاحب عليه ، وتوعده إياه . . . فهرب التوحيدى من دائرة نفوذه ، ولجا بنفسه ، تاركا حتى أجرة على ما نسخ من مخطوطات ! . . .

والتوحيدى يحكى هذا السبب لغضب ابن عباد عليه ، فيقول :
إن خادم الصاحب بن عباد ، وناظر خزانة كتبه « نجاح » قد جاء إلى التوحيدى « بثلاثين مجلدة من رسائل الصاحب » ، وقال :

- يقول لك مولاي : انسخ هذا ، فإنه قد طلب منه بخراسان .
- فقلت - بعد ارتياح - (من ضخامة المجلدات الثلاثين المراد نسخها !) : - هذا طويل ، ولكن لو أذن لى خُرِجْتُ منه فقراً كالغمر ، وشذوراً كالدرر . . .

أى أن التوحيدى أراد الانتقاء من كتابات ابن عباد ، موحيا أن فيها ما يستحق النسخ والإبقاء عليه وفيها ما ليس بغرر ولا درر . . . ثم يواصل التوحيدى رواية الواقعة فيقول : « فرغ - (الخادم نجاح) - الأمر إليه - وأنا لا أعلم ، فقال - (الصاحب) - :

- طعن فى رسائلى وعابها ، ورغب عن نسخها ، وأزرى بها ، والله لينكرن منى ما عرف ، وليعرفن حظه إذا انصرف . . . » ثم يعلق التوحيدى على غضب الصاحب ، فيقول :

- « حتى كأنى طعنت فى القرآن ! . . . »^(١)

(١) (مطالب الوزيرين) ص ٣٢٥ . انظر : د . إبراهيم الكيلانى (أبو حيان التوحيدى)

ومنذ ذلك التاريخ بدأت مأساة أبي حيان مع الصاحب بن عباد ، لأنه تطلع إلى ماهو أرقى من وظيفة «الناسخ الوراق» ! . . . وبدأ هجاء التوحيدى للصاحب ، وشرع قلمه - الذى كان ريشة فنان - يصور للصاحب الصور التى شوّهت صورته . . . وأتى عنها ياقوت الحموى عندما وصف أبا حيان بأنه كان «مجبولا على الغرام بطلب الكرام . . .» ! . . . ولقد هرب التوحيدى من دائرة سلطان الصاحب - فى الرى - وعاد إلى بغداد ، متحدثا عن سوء معاملة الصاحب له ، و «الحرمان الممر ، والصد القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقصد - (الزجر) - المؤلم ، والمعاملة السيئة ، والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهّم المتوالى عند كل لحظة ولقطة» (١) . . . !

وفى بغداد لقي الشيخ أبا الوفاء المهندس - وكان مقدما فى العلوم الطبيعية - فعينه حارسا فى «البيمارستان العضدى» ، ثم رشحه لنسخ (كتاب الحيوان) للجاحظ ، بطلب من الوزير ابن سعدان ، قائلا له : إن الوزير «استكتبك (كتاب الحيوان) لأبى عثمان الجاحظ ، لعنايتك به ، وتوفيرك على تصحيحه» (٢) . . . فبدأت علاقته بابن سعدان «ناسخا ورّاقا» ، ثم استدعاء من حراسة البيمارستان ، ليكون - مع النسخ والوراقة - مسامرا للوزير . . . ويشهد الشيخ أبو الوفاء المهندس البوزجاني - فى حوارهِ مع التوحيدى - مع تسليم التوحيدى بهذه الشهادة - وأبو الوفاء واحد من القلة الذين أحسنوا إلى التوحيدى ، ولم ينقلب عليهم أبو حيان بالهجاء ! - يشهد الشيخ أبو الوفاء على أن مكانة التوحيدى

(١) (الإمتاع والمؤانسة) ج ١ ص ٤١٣ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ص ٥ .

كانت - أولاً وفي الأساس وقبل أى شىء آخر - هى مكانة «الناسخ الوراق» ، الذى حباه الله ملكة أدبية وفنية وبلاغية أتاحت له ذوقاً وتذوقاً لاختيار الجياد من النصوص والروايات والمأثورات التى ينسخ مخطوطاتها ، وأنه لم يكن من علماء تلك الفنون التى روى عن أعلامها فيما سافر به أو صنقه من مصنفات ..

ففى رسالة كتبها أبو الوفاء إلى التوحيدى - وأثبتها التوحيدى ، مصدقاً على ما جاء فيها - ينبهه وهو يوصيه بتدوين مسامراته مع الوزير ابن سعدان ، ينبهه إلى أنه ليس من علماء البلاغة والإنشاء ، فيقول له : «وَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ الْبَلَاغَةِ وَالْإِنْشَاءِ فِي جَانِبٍ ، فَإِنْ صَنَاعَتُهُمْ يُقْتَرَفُ فِيهَا أَشْيَاءُ يُؤَاخَذُ بِهَا غَيْرُهُمْ ، وَلَسْتُ مِنْهُمْ ، فَلَا تَتَشَبَّهُ بِهِمْ ، وَلَا تَجِرْ عَلَى مِثَالِهِمْ ، وَلَا تَنْسَجِ عَلَى مَنَوَالِهِمْ ، وَلَا تَدْخُلْ فِي عَصَارِهِمْ ، وَلَا تُكْثِرْ بِيَاضِكَ سَوَادَهُمْ ، وَلَا تُقَابِلَ بِفَكَاهَتِكَ بَرَاعَتَهُمْ ، وَلَا تَحْذِبَ بِيَدِكَ رِشَاءَهُمْ ، وَلَا تَحَاوِلْ بِيَاعِكَ مِطَاوَلَتَهُمْ ، وَاعْرِفْ قُدْرَكَ تَسْلَمَ ، وَالزَّمْ حَدُّكَ تَأْمَنَ ، فَلَيْسَ الْكَوْدُنُ - (الفرس الهجين) - مِنْ الْعَتِيقِ - (الكريم) - فِي شَيْءٍ !»

وفى جواب التوحيدى على رأى أبى الوفاء هذا ، يعترف بأن هذا الكلام هو «مَا يُعْرِفُ الْحَقُّ فِيهِ ، وَيَسْتَبِينُ الصَّوَابُ مِنْهُ .. وَهُوَ كَلَامُ الْمُرْشِدِ النَّاصِحِ^(١) .. !» ..

ومع إحسان أبى الوفاء المهندس إلى التوحيدى .. شعر أبو الوفاء بخيانة التوحيدى لعهد ، ظناً منه أن علاقته بالوزير ابن سعدان تغنيه عن الوفاء لمن أحسن إليه وأوصله إلى هذا المقام .. فكتب أبو الوفاء إلى التوحيدى يذكره بمكانته ووظيفته ، ويحذره من تجاوزه قدره وتعديه حدوده .. فقال مخاطباً إياه : «إِنَّكَ تَخْلُو بِالْوَزِيرِ ،

(١) المصدر السابق - ج ١ ، ص ١١١ .

ليالى متتابعة ومختلفة ، فتحديثه بما تحب وتريد ، وتلقى إليه ما تشاء وتختار ، وتكتب إليه الرقعة بعد الرقعة ، ولعلك فى عرض ذلك تعد و طورك بالتشديق ، وتجاوز حدك بالاستحقاق ، وتتطاول إلى مائيس لك ، وتغلظ فى نفسك ، وأنت غير لاهية لك فى لقاء الكبراء ، ومجاورة الوزراء ، وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك ، وإلى مران سوى مرانك ، ولبسة لا تشبه لبستك .. والعجب أنك ، مع هذه الحيلة ، تظن أنها مطوية عنى ، وخافية دونى ، وأنت قد بلغت الغاية وادع القلب ، وملكت المكانة ثانى العنان ، وقد انقطعت حاجتك عنى وعمن هو دونى ، ووقع الغنى عن جاهى وكلامى ولطفى وتوصيلى ، وجهلت أن من قدر على وصولك ، يقدر على فصولك (خروجك) وأن من صعدك حين أراد ، ينزل بك إذا شاء ، وأن من يُحسن فلا يُشكر ، يجتهد فى الاقتصاد حتى يُقَدَّر .. أتظن بقرارتك - (غفلتك) - وغمارتك - (جهلك وبلاهلك) وذهابك فى فسونتك (خستك وقلة مروءتك) التى اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدياء الأرياء ، أنك تقدر على مثل هذه الحال ، وأنام منك على حسن ظن بك؟! .. هيهات!!

ففى هذا «العتاب - المنذر» و «الإنذار - المعاتب» تنبيه للتوحيدى على مكانته ، ودعوة له كى لا يتجاوز قدره .. «اعرف قدرك تسلم ، والزم حدك تأمن» ! ..

فما كان من التوحيدى إلا أن أجاب أبا الوفاء : «أنت مولى وأنا عبد ، وأنت أمر وأنا مؤتمر ، وأنت مُمَثَّلٌ وأنا مُمَثَّلٌ ، وأنت مصطنع وأنا صنيعة ، وأنت مُنشئٌ وأنا مُنشأٌ ، وأنت أول وأنا آخر ، وأنت مأمول وأنا أمل^(١) .. !! .. فعاد أدراجه إلى موقع «المسامر» «المفاكه» «التناسخ .. الوراق» ..

(١) المصدر السابق . ج ١ ص ٥ - ٧ .

(٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٨ .

وفى مسامرة بين الوزير ابن سعدان والتوحيدى ، سأله الوزير :
- «لَمْ لا تُدَاخِل صاحب ديوان ، وَلَمْ تَرْضَى لِنَفْسِكَ بِهَذَا اللَّيُوسُ؟»
- فَقُلْتُ - (التوحيدى) - : «أنا رجل حب السلامة غالب على ،
والقناعة بالطفيف محبوبة عندى .

- فقال - (الوزير) - : كُنْتُ عَنْ الْكَسْلِ بِحُبِّ السَّلَامَةِ ، وَعَنْ
الْفُسُولَةِ - (الحُصَّة) - بِالرِّضَا بِالْيَسِيرِ .

- قلت - (التوحيدى) - : إِذَا كُنْتُ لَا أَصِل إِلَى السَّلَامَةِ إِلَّا
بِالْفُسُولَةِ ، وَلَا أَتَطَعَّمُ الرَّاحَةَ إِلَّا بِالْكَسْلِ ، فَمَرْحَبًا بِهِمَا (١) . . !!

وهو اعتراف من أبى حيان بموقعه ومكانته وقدراته فى الأوساط
الاجتماعية التى عاش فيها . وإذا كان الرجل قد مدَّ عينيه إلى ما
وراء مكانة «الناسخ الوراق» ، فلقد كان هذا حقه الذى تؤهله له
قدراته الأدبية والفنية والبلاغية . . لكن يبدو أن خُلُقَه هو الذى
حال بينه وبين احتلال مكانته بين العلماء! . .

والقارئ للتوحيدى يحترم أمانة الرجل عندما ينسب الآراء التى
ينقلها والمأثورات التى يرويها والأفكار التى يسامر بها والنصوص
التي يؤلف بينها إلى أصحابها . . بل وينبه على أنه ليس من أهل
الفلسفة - وهو قد جمع فيها مؤلفات - فهو يصف عمله فى كتاب
(المقابسات) - وهو ديوان فى فلسفة عصره - بأنه «تصنيف أشياء
من الفلسفة ، رويتها عن مشائخ العصر الذى أدركته والزمان الذى
لحقته» فيه (٢) . . «فالفلسفة موقوفة على أصحابها ، لا
نزاحمهم عليها ، ولا نغاريهم فيها» (٣) . .

(١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) (المقابسات) ص ٥٤ .

(٣) (الصداقة والصديق) ص ٥٦ .

بل إن الناظر في آثار أبي حيان ، لا يحتاج إلى كبير جهد ليذكر أنه أعلام روايات ناسخ وراق ، وجامع محقق ، وصيرفي نقاد جيد الاختيار ، أكثر مما هو بإزاء مبدع مبتكر - وهي حقيقة لا ندرى كيف غفل عنها جمهوره دارسيه ؟! . . . الأمر الذي يستوجب « نظرة ميدانية » في صفحات هذه الآثار ، تقييم الدليل المادي على هذه الحقيقة ، إسهاما في وضع الرجل بمكانه الحقيقي بين أعلام التراث . .

كتاب الإمتاع والمؤانسة:

فى هذا الكتاب - الذى هو من أكبر كتبه - والذى تبلغ الصفحات المطبوعة لأجزائه الثلاثة قرابة السبعمائة صفحة - تمتلى صفحات الكتاب بأسماء وصفات أصحاب النصوص والأفكار التى رواها ونقلها واختارها التوحيدى .. والتى تكون نحواً من ٩٠٪ من صفحات هذا الكتاب ... فهذه الصفحات مليئة بقول التوحيدى :
«قال الأول .. وقال ذو الرمة .. وقد أجاد القطامى فى قوله ..
وقال بعض السلف .. ثم رويت أن عبد الملك بن مروان قال ..
وقال عمر بن عبد العزيز .. وسمعت أبا سعيد السيرافى يقول ..
وقال سليمان بن عبد الملك .. وحدثنا ابن سيف الكاتب الراوية قال .. وقال أبو سليمان السجستانى .. وقال لى الدارقطنى ..
وحدثنا النصرى أبو عبد الله .. ثم قرأت عليه - (الوزير ابن سعدان) - نواذر الحيوان ، وغرائب ما كنت سمعته ووجدته ..
وأنشدته لأعرابى قديم .. وقال بعض الفلاسفة .. وقد أملى علينا أبو سليمان كلاماً فى حديث النفس ، هذا موضعه ، قال ..
وسألت أبا سليمان عن السكينة ، ما هى ؟ فقال .. وحكى عن ابن يعيش الرقى فصلاً سمعته يقوله - فى الممكن - لا بأس برسمه فى هذا الموضع .. وقال جرير .. وقال فيلسوف يونانى ..
وقال أفلاطون .. وقال أومبيروس .. وقال انكساغورس .. وقال ديوجانس .. وقال سقراط .. وقال مقاريوس .. وقيل لفيثاغورس .. فقال .. وحكى لنا أبو سليمان أن أرسطو طاليس كتب .. وقيل لاسقليبيوس .. فقال .. وقال غالوس .. وذكر للاسكندر .. فقال .. وقال أبقرراط .. وقال أبو الحسن العامرى ..
وقال الحكماء الأولون .. وقال أبو الأسود .. وقال ابن الكلبي ..

وقال عمر بن الخطاب .. وقال صاحب التاريخ .. وهذا آخر ما كتبت عن علي بن عيسى الرماني .. وقال الوزير - (ابن سعدان) - : هات ، قلت : إن الكلام في النفس صعب .. وأنا أتى بما أحفظه وأرويه .. قال بعض الفلاسفة .. وقال الوزير : ما تحفظ في تفعال وتفعال ؟ .. قلت : قال شيخنا أبو سعيد السيرافي الإمام .. ورسم (الوزير) - بجمع كلمات بوارع ، قصار جوامع ، فكتبت إليه أشياء كنت أسمعها من أفواه أهل العلم والأدب على مر الأيام في السفر والحضر .. من ذلك .. وقال - (الوزير) - ليلة : أحب أن أسمع كلاما في مراتب النظم والنثر .. فكان الجواب : أقول ما وعيته عن أرباب هذا الشأن ، والمنتمين لهذا الفن .. وجرى مرة كلام عن الممكن ، فحكيت عن ابن يعيش الرقي فصلا سمعته يقوله ، لا بأس برسمه في هذا الموضع ، قال .. وقال - (الوزير) - مرة أخرى : اكتب لي جزءا من الأحاديث الفصيحة المفيدة .. فكتبت : قال مالك بن عماره اللخمي .. وقال الققعاق بن عمرو .. وقال عتبة ابن المنذر السلمى .. وقال جعفر بن أبي طالب .. وسأل - (الوزير) - مرة عن المغنى إذا راسله آخر لم يجب أن يكون ألد وأطيب وأحلى وأعذب ؟ .. فكان من الجواب : أن أبا سليمان قال في جواب هذه المطالب .. وقال - (الوزير) - : فما للعقل في ذلك ؟ .. قلت : قد أتى على مجموع هذا ومعرفته أبو سليمان في مذاكرته لابن الخمار .. وذكر .. وجرى حديث الفيلة ليلة .. فحكيت أن العلماء طبائع الحيوان ذكروا .. وقال - (الوزير) - : سراويل ، يُذكر ؟ أم يُؤنث ؟ ويصرف أم لا ؟ .. فكان الجواب : إن علي بن عيسى حدثنا عن شيخه ابن السراج قال .. هكذا قال لنا السيرافي ، وقد قرأت عليه هذه الفقر كلها ، وإنما جمعها للوزير بعد إحكامها وروايتها .. قال - (الوزير) - : ما أحسن ما جمعت

وأُتيبت به .. فقلتُ : أيها الوزير ، عندى فى هذا - (السؤال عن سياسة العامة) - جوابان : أحدهما ما سمعت من شيخنا أبى سليمان .. والآخر ما سمعته .. من شيخ صوقى .. ثم ناولنى - (الوزير) - رقعة فيها مطالب - (أُسئلة) - نفيسة : ثأنى على علم عظيم ، وقال : يا حث عنها أبى سليمان وأبى الخير ومن نعلم أن فى مجازاته فائدة .. وحصل ما يجيبك به ، ولخصه ، وزنه بلفظك السهل وإفصاحك البين .. فعرضتها كما رسم على أبى سليمان ، وقرأتها عليه .. فقال كلاما كثيرا واسعا ، وأنا أحكيه على وجهه عن طريق المعنى ، وإن انحرفت عن أعيان لفظه وأسباب نظمه ، فإن ذلك لم يكن إملأ ولا تسخا ، وأجتهد أن ألزم متن المراد ، إن شاء الله .. وقال - (الوزير) - كان عيسى بن زرعة سرد على أشياء فى الخلق .. وينبغى أن تزوره ، وتبعثه على إعادة حدودها ، وإشباع القول فيها ، مع إيجاز .. فلقيت عيسى ، وعرفته الحديث ، فأملئ ما رسمته فى هذا الجزء ، وعرضته على أبى سليمان ، فرضيه بعض الرضا ، ولم يستخط كل السخط .. قال .. هكذا قال لنا السيرافى ، وقد قرأت عليه هذه الفقرة كلها ، وإنما جمعتها للوزير بعد إحكامها وروايتها ، فقال الوزير : ما أحسن ما جمعت وأتيبت به .. وقال الوزير : حدثنى عن اعتقادك فى أبى تمام والبحتري ؟ فكان الجواب : إن هذا مختلف فيه ، لكن حدثنا أبو محمد العروضى عن أبى العباس المبرد قال : سألنى عبد الله بن سليمان عن أبى تمام والبحتري ، فقلت ..

إلى آخر هذه الشواهد التى امتلأت بها صفحات أجزاء (الإمتاع والمؤانسة) ، والتى أطلنا فى إيراد نماذج - مجرد نماذج - منها ، لتضع يدنا على حقيقة مكانة التوحيدى : الناسخ .. الأوراق .. الراوية .. المحقق .. أكثر منه صاحب الإبداع والابتكار ..

وكتاب المقاييس:

وإذا كان تسمية أعمال الإصناع و... وإقامة نقول وروايات واختيارات... فإن المقاييس يكاد أن يكون له من قدر القبول... فهو مقاييس فلسفية، جميعها التوحيدى، الذى يعترف بأنه لا علاقة له بهذا الفن، إذ هي بعبارة: «تصنيف أشياء من الفلسفة، ورويتها... عن مشايخ العصر الذى أدركته والزمان الذى لحقتهم فيه». أقيمت أثناف ما شرد منها، وأنظم ما انتشر منها، وأرّق بجهدى وطاقتى شملها، وأحلى بوسعى عطائها... والفلسفة مرفوعة على أصحابها، لا تراحمهم عليها، ولا تضاربهم فيها»^(١).

وإذا كانت «الدراسة الميدانية» هي الساهد المادى على صدق هذا الذى تقول، فإن صفحات المقاييس لا تعدو أن تكون نقولاً منسوبة إلى أصحابها، رواها ودونها أبو حيان...
ففى المقاييس الأولى: «سمعت أبا سليمان المنطقى يقول...»
وفى الثانية: «هذه المقاييس دارت فى مجلس أبى سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى... فاستخلصتها جهدى... وهذا آخر ما نقلت عن حكاية هذه المقاييس...» وفى الثالثة: «جرى عند ابن سعدان يوماً كلام فى الأخلاق، وحضر جماعة منهم... فكان محصول ذلك... وكان فى كلامهم قشر كثير حصلت خالصة وزبدته...» وفى الرابعة عشرة: «قال يحيى بن عدى، فى درس المديهي عليه سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وأنا حاضر... ودخل أبو العلاء صاعد الكاتب وانقطع الكلام، وفات أن يبلغ

(١) (المقاييس) ص ٥٤، ٥٦.

(٢) (الصدقة والصدق) ص ٥٦.

أقصى ما عنده . . . وفي السادسة عشرة : . . والله لقد تعبت في
تحصيل ما قالوه ، وخاطرت الآن برواية ما ثقابسه . . . وفي
التاسعة عشرة : « هذا ما خلص من هذا الاجتماع ، أثبت به على
ما ألفيته . . . وفي الخامسة والعشرين : . . وكان كلام أبي
سليمان أكثر من هذا ، ولكن إلى هاهنا بلغ حفظي ، وانتهى
تبعي . . . وفي الثالثة والثلاثين : . . وأطال إطالة شذرها
عني أكثر قوله . . . وفي الرابعة والعشرين : « سألتني أبو سليمان
يوما عن الطبيعة ، وكيف هي عند أهل النحو واللغة : أهى فعيلة
بمعنى فاعلة ؟ أو بمعنى مفعولة ؟ فقلت : أكره أن أرجل الجواب . .
وأنا أسأل شيخنا أبا سعيد السيرافي . . فهو اليوم عالم العالم ،
وشيخ الدنيا ، ومقنع أهل الأرض . . فسألت أبا سعيد ،
فقال . . . وفي الرابعة والثلاثين : . . ومحصولي من ذلك ما
سمعته الآن . . . وفي الخامسة والثلاثين : « وأطال - أبو سليمان
السجستاني - في هذا الفصل ، وعظمت من جميعه قدر ما قررته
في هذا المكان » . . وفي المقابلة الأربعين : « قال أبو زكريا
الصيمري . . وكان كلامه أطول من هذا وأشفي ، وهذا حاصل
منه . . . وفي الحادية والأربعين : . . وإنما عزوت ذلك كله
إلى هؤلاء الأعلام . . من غير أن أستبد بشيء عليهم : إلا بما لا
بال به . . . وفي الرابعة والأربعين : « رأيت أفاضل من
الفلاسفة . . وقد اقتبست منهم ما رسمته في هذا المكان . . .
وفي الخامسة والأربعين : « قرأت أبا سليمان في المنام ، فسألته
عن الحال التي قد شغلتنى ، فقال في الجواب قولاً متقطعا ، التأم
من جملته في اليقظة ما أنا راسمه وحاكه في هذا الموضع
قال . . . وفي المقابلة الخمسين : « سئل أبو سليمان عن

الكهانة . . فتصرف في الجواب . . ومقدار الحاصل منه أثبتته في هذا الموضوع ، خوفاً من أن يذهب نسياناً . . . وفي الخامسة والستين : « هذه مقابلة نذكر فيها نوادر سمعناها في الفلسفة العالية من أبي سليمان . . . وفي السادسة والستين : « ونذكر في هذه المقابلة حكماً سمعناها من الحراني أبي الحسن وغيره . . . وفي الثامنة والستين : « هذا آخر ما فهمناه عن أبي سليمان في هذا الفصل . . . وفي المقابلة السبعين : « وتكلم أبو سليمان في التوحيد بكلام طال ودق . . وصفتُ هذا المقدار ، بعد استفهام كثير ، ومراجعة شديدة ، لأن الإشارة غامضة ، والإيماء خفى . . وفي المقابلات الثالثة والسبعين والرابعة والسبعين والثامنة والسبعين والتاسعة والسبعين : « وأملى على أبي سليمان فقال . . . وفي الثانية والثمانين : « . . وأملى أبو سليمان على جماعة كنت أحدهم سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة . . . وفي التاسعة والثمانين : « نذكر في هذه المقابلة أشياء سمعناها من أبي سليمان ، في مجالس الأنس ، إن لم تكن من صور الفلسفة ، فإنها لا تخرج من جملتها . . . وفي المقابلة التسعين : « هذه مقابلة تشتمل على كلمات شريفة ، من كلام أبي الحسن العامري ، علقت وسمعت أكثرها منه ، وهي التي مرت في شرحه لكتابه الموسوم بالنسك العقلي . . . وفي الحادية والتسعين : « ليس لي في جميع فنون هذه المقابلة إلا حظ الرواية عن هؤلاء الشيوخ . . . وفي السابعة والتسعين : « هذه مقابلة قد أفدناها من مواضع مختلفة ، في أعيان كلام الأوائل ، بالترجمة المنقولة إليها . . . وفي المقابلة الواحدة بعد المائة : « إنما يبعثنى على

رواية كل ما سمعته من هؤلاء الجلة الأفاضل : عشقني لهم ،
وحمدى الله - تعالى - على ما أتاح منهم . . . إلخ . . إلخ .
فالتوحيدى - فى طول المقابسات - رواية ، يدون ما يسمع أو
يُملئ عليه . . ومن الظلم للفلاسفة الذين سمع منهم أو نقل عنهم
أن ننسب له هذه الأفكار . . ومن الظلم له أن نحسب على عقيدته
ما فى المقابسات من نظريات ونظرات وآراء . .

وكتاب الصداقة والصديق :

الذي تقترب صفحاته - المطبوعة - من الخمسمائة صفحة، جميعه نقول ومأثورات اختارها التوحيدى ورواها وألف بينها من المنظوم والمثنون ، ويندر أن نجد له فى هذا الكتاب بضعة أسطر، يسأل فيها سؤالاً أو يعلق بها على بعض هذه المأثورات.. وهو ذاته يقرر لنا هذه الحقيقة فى مقدمته لهذا الكتاب .. فهى مأثورات «جمعها ممن تقدم، من الشعراء والأدباء والفلاسفة والعلماء : بناء على طلب الوزير ابن سعدان - قبل أن يلى الوزارة - .. يقول التوحيدى فى تقرير هذه الحقيقة : «وكان سبب إنشاء هذه الرسالة فى (الصداقة - والصديق) أنى ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبى الخير، فَنَمَاه - إلى ابن سعدان الوزير أبى عبد الله .. قبل تحمُّله أعباء الدولة .. فقال لى ابن سعدان : ذُوْن هذا الكلام وصله بصلاته مما يصح عندك من تقدم .. فجمعت ما فى هذه الرسالة^(١) ..

ولذلك فإن فقرات هذا الكتاب جميعها مسبوقة بهذه العبارات : أنبأنا .. وسمعت .. وقال .. وحدثنى .. وكتب .. وكتب آخر .. وقال فيلسوف .. وقيل لفيلسوف فقال ... وحكى .. وسئل .. فقال .. وروى .. وفُرات .. وكتب ... إلى صديق له ... وقال كاتب .. وقال شاعر .. وقال آخر .. وقال بعض السلف .. وقال أعرابى .. وقالت أعرابية .. وقال رجل لعمر بن الخطّاب .. وقال الراجز .. وقد ورد .. وأخبرنا .. وحدثنا .. والعرب تقول .. وقال فى رسالة أفدناها .. وذكر أعرابى .. وقيل لأعرابى فقال .. وأنشدنا .. وأنشدنى منشد .. وحدثت أن رجلاً قال .. وقال

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

بعض المتقدمين .. ووقع إلى رجل .. وقال كاتب .. ولكاتب ..
 وقال حكيم .. وقال شاعر قديم .. وقلت لأبي سليمان .. فقال :
 .. وكان كلامه أكثر من هذا ، لكنى أو جزته ، لأن الرسالة قد
 طالّت ، وأخاف أن تُملَّ عند القراءة ، وينسب وضعها إلى سوء
 الاختيار .. وأروى ها هنا ذُراوة - (تفا متفرقة) - من كلام أرباب
 الحذق والخرق - (الحُقم) - فإن فيه فائدة حسنة لا أرى الإضراب
 عنه ولا الإخلال به .. ورويت هذا الخبر - (عن ابن عباد
 وأصحابه .. وابن العميد وأصحابه) - على ما اتفق ، وكنت أطلب
 له مكانا منذ زمان ، فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث
 الصداقة والصدق .. »

هكذا تقوم صفحات كتاب (الصداقة والصدق) . مثلها مثل
 صفحات (الإمتاع والمؤانسة) و (المقاسبات) - ونصوص التوحيدى فى
 هذه الصفحات ، شهادة على أن الرجل إنما كان راوية وجامعا
 ومختارا ومحققا ، أكثر منه مبدعا ومنشئا ومبتكرا ..

* * *

ومن هنا تأتى غرابة أمر دراسية الذين لم ينتبهوا إلى هذه
 الحقيقة ، فساروا على منوال كتاب التراجم القدماء ، فأضفوا عليه
 صفات «الفلسفة» و «الكلام» وعقدوا له لواء الإمامة فى الفنون
 التى كان راوية لمآثورات علمائها ، بل وقالوا عنه : إنه «فرد
 الدنيا الذى لا نظير له» !! ..

وإذا شئنا أمثلة على الأخطاء ، التى ما كانت لتصح أو تجوز من
 دارسية المعاصرين ، والتى نشأت عن حملهم الروايات على
 «الراوى» بدلا من المروى عنه ، والمآثورات على «الناقل» بدلا من
 مبدع هذه المآثورات ، فإننا نشير إلى غاذج شهادة على هذه الأخطاء :

١ - لقد نسب الدكتور إبراهيم الكيلاني إلى أبي حيان رأيا في المقارنة بين المتكلمين والفلاسفة . . وساق على ذلك شاهدا من كتاب (المقاييسات) يقول : إن «طريقة المتكلمين مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ ، وموازنة الشيء بالشيء ، إما شهادة من العقل مدخولة ، وإما بغير شهادة منه البتة» . . فإذا عدنا إلى المصدر - كتاب (المقاييسات) - وجدنا سياق النص على النحو التالي :

«قلت - (أى التوحيدى) - لأبى سليمان : ما الفرق بين طريقة المتكلمين وبين طريقة الفلاسفة ؟ .

فقال - (أى أبو سليمان السجستاني) - : طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ^(١) . . إلخ . . إلخ . .

فالكلام والرأى والموقف هو لأبى سليمان السجستاني - الذى كان فيلسوفا ، ناقدا لمناهج المتكلمين - وليس للتوحيدى ، الذى لم يكن متكلم ولا فيلسوفا ! . .

٢ - وناشر كتاب (الصدّاقة والصديق) يقول : «ولقد نبه أبو حيان على رأيه فى الصدّاقة فقال :

«لقد صحبت الناس أربعين سنة ، فما رأيتهم غفروا لى ذنبا ، ولا ستروا لى عيبا ، ولا حفظوا لى غيبا ، ولا أقالوا لى عشرة : ولا رحموا لى عبّرة ، ولا قبلوا منى معذرة ، ولا فكونى من أسر ، ولا جبروا لى من كسر ، ولا بذلوا لى من نصر^(٢)» . .

فإذا رجعنا إلى نص التوحيدى ، نجد أنه راويا لهذا النص عن «جميل

(١) (المقاييسات) ص ١٦٩ .

(٢) مقدمة الناشر ، ص .

ابن مرة - فى الزمان الأول» . عندما اعتزل الناس «وعوتب فى ذلك ، فقال : لقد صحبت الناس أربعين سنة . إلخ . . إلخ . .^(١)

فأقول لجميل بن مرة ، وليس للتوحيدى . . والتوحيدى كان محققا فى نسبة النصوص إلى أصحابها أكثر من دارسيه المحدثين ، الذين ندر من لم يستشهد بهذا النص تلى أنه من أقوال أبى حيان^(٢) .

والغريب أن يقع فى هذا الخطأ من يعلم أن كتاب (الصدقة والصدى) قد أتمه التوحيدى سنة ٤٠٠ هـ سنة ١٠٠٩ م . . أى بعد صحبته للناس نحو من تسعين عاما ، وليس أربعين عاما ، كما هى حال صاحب النص جميل بن مرة - الذى روى التوحيدى عنه هذه العبارات - !! . .

٣ - والدكتور عفيف البهنسى : يورد نصا من كتاب (الإمتاع والمؤانسة) مستشهدا به على تصور التوحيدى «للصورة الإلهية غير المشبهة» . . فإذا عدنا إلى المصدر ، وجدنا هذا النص من روايات أبى حيان التى نقلها عن أبى سليمان السجستانى^(٣) . . .

ويورد نصا آخر من ذات الكتاب ، مستشهدا به على تصور التوحيدى لـ «وصف الصورة الإلهية» . . فإذا ما عدنا للمصدر ، وجدنا هذا النص ، هو الآخر لأبى سليمان السجستانى ، وليس لأبى حيان^(٤) !!

ويورد نصا ثالثا من ذات الكتاب ، يجعل له عنوانا : «نموذج من

(١) (الصدقة والصدى) ص ١١ ، ١٠ .

(٢) انظر (فلسفة الفن عند التوحيدى) ص ٩٣ ، ٩٤ وقارن بما فى (الإمتاع والمؤانسة) ج ٣ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٣) انظر (فلسفة الفن عند التوحيدى) ص ٥٦ . وقارن بما فى (الإمتاع والمؤانسة) ج ٣ ص ١٣٧ .

أدب أبي حيان . . . فإذا عدنا إلى المصدر ، وجدنا هذا النص من
سماعيات التوحيدى واستنباطاته ، وليس من إضافاته حتى يكون
«مؤججا» لأدبه (١) !!

تلك مجرد نماذج للأخطاء التى وقع فيها جمهور دارسى أبى
-ريان التوحيدى : عندما نقاب عناهج «الرعى والتحقيق» عن
«قراءة لمصنفاته ومؤلفاته» ، وسار المعاصرون فى النظر إليه وفى
تقويته وراء القدماء من كتاب التراجم والمؤرخين . .

* * *

لكن . . . ألا يمكن أن تُعد «اختيارات» أبى حيان التى اختارها
وألف بينها وصنفها - دون سواها - معبرة عن «موقف فكرى» -
واختيار المرء قطعة من عقله - كما قال القدماء - فتدخل هذه
«الاختيارات» فى باب «الإبداع» ، أو تقف على مقربة من
بابه ؟! . .

إننا لا نحيل إلى الإجابة على هذا التساؤل بالإيجاب . . ذلك أن
«الاختيار» إنما يكون «موقفاً» إذا كان «استشهاداً» يسوقه المستشهد به
على صدق رأيه ، ويستدل به على موقفه وإبداعه وابتكاره . . وليس هذا
هو حال التوحيدى فى «الاختيار» ، فالرجل يروى وجهات النظر
المختلفة على السنة أصحابها . . فيثبت نصوص المناظرة بين أنصار النحو
العربى ، المتحازين إلى المنهاج الإسلامى ، وبين أنصار المنطق الأرسطى ،
المتحازين إلى المنهاج اليونانى . . وهو يورد مقولات «إخوان الصفا»

(١) انظر (مقدمة الفى عند التوحيدى) ص ٣٥ وقارن بما فى (الإمتاع والمؤانسة) ج ١

ص ٨٤ ، ٨٥

(٢) انظر نص المناظرة بين أبى سعيد السيرافى وبين أبى شير متى بن بوشى حوز
«نحو العربية ومنطق اليونان» (الإمتاع والمؤانسة) ج ١ ص ١٠٨ - ١٢٨ .

الذين مزجوا الإسلام بالأفلاطونية والغنوصية والإشراقية .. وآراء
المناطقة .. ومقولات فلاسفة اليونان، المشائين حيناً، والأفلاطونيين فى
كثير من الأحيان .. يورد كل ذلك منسوباً لأصحابه وقائله، دون أن
يكون صاحب موقف يستشهد عليه ويشهد له بهذه المرويات
والاختيارات ..

ومع ذلك فنحن لا نجرد اختياراته كلية من تفضيلاته ، فله فى
ثنايا الاختيارات أسئلة - والسؤال موقف أحيانا - وله تعليقات
واستنباطات .. كما أن له - فى كثير من الأحيان - جهداً كبيراً
فى الصياغات ، وأسلوباً فنياً بديعاً فى رسم الصور للأفكار
والمقولات .. وهو محقق بنه غالباً على ما هو «نقل» و «إملاء» ،
وعلى ما فيه «صياغة» ورواية بالمعنى لا بنص الألفاظ ..

ولعل الإبداع المتميز لأبى حيان إنما يتجلى فى موهبة الفنان التى
امتلكها .. ففى «فنه الهجائى» - وخاصة كتابه (مثالب الوزيرين)
- عبقرية فى رسم اللوحات التى تجسد المعانى السلبية والصفات
القبیحة والحركات الهزلية التى ألصقها - أو اجتهد فى إلصاقها -
بأثنين من أعلام علماء تراثنا - صاحب بن عباد .. وأبى الفضل
ابن العميد - ..

أما ما عدا ذلك من تأليفه وتصانيفه ، فهو فيها - بالدرجة
الأولى - جامع ومصنف .. له فضل الجمع والاختيار والتأليف
والتصنيف والتدوين .. ومصادره هى «الوراقة» التى احترفها ،
ومجالس العلماء التى حضرها ، فتصانيفه كنز لأفكار سمعها
شفاهة فكان له فضل تدوينها وحفظها من الضياع .. وذخائر
جمعها من كتب ضاع الكثير منها فيما ضاع من تراث المسلمين ،
وخاصة فى دمار بغداد على يد التتار ..

وهو في كل ما صنف وجمع وروى قد أقام للفكر بناء شامخا
اجتهد في الجمع والاختيار للبناته ، ومن النادر أن نجد في هذا
البناء الشامخ حشوا لا علاقة له بصناعة الفكر ، بل وعيون
الأفكار ، في عصر الازدهار الذي عاش في بحبوخته أبو حيان ..
ذلك الذي شقى بخُلُقِه هو ، وليس بالعصر الذي عاش فيه ! .

الفهرس

الموضوع رقم الصفحة

٣	تمهيد
١١	هل كان التوحيدى زنديقا ؟
١٦	وهل كان التوحيدى فيلسوفا ؟
١٨	وهل كان معتزليا ؟
٢٤	وهل كان متصوفا ؟
٣٠	وهل احرق التوحيدى كُتبه ؟
٣٥	مكانه التوحيدى بين «الروايه» و «الابداع»
٤٢	كتاب الإمتاع والمؤانسه
٤٥	وكتاب المقايسات
٤٩	وكتاب الصداقة والصديق



جميع الحقوق محفوظة - الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ

إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث .. فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، **تصدر هذه السلسلة** ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة ● المستشار طارق البشرى .
- د . حسن الشافعى ● د . محمد سليم العوا .
- ا . فهمى هويدى ● د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقي ● د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..
إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر